مناهج بناء الذات

مناهج بناء الذات

سماحة آية الله العظمى المرجع الديني
السَّيِّد صَادق الحُسيني الشِّيرازي (دام ظلّه)

الناشر

للتواصل:

الموقع الإلكتروني: www.alanwar14.org

البريد الإلكتروني: info@alanwar14.org

هاتف جوال: ٠٠٩٦٦٥٦٠٢٥٧٥٧٦

جميع الحقوق محفوظة

دار المؤمل للطباعة والنشر

بيروت – لبنان

شارع بئر حرة

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء وخاتم المرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين، شجرة النبوّة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعدن العلم، وأهل بيت الوحي، والفلك الجارية في اللجج الغامرة، يأمن من ركبها، ويغرق من تركها، المتقدم لهم مارق، والمتأخر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق، واللعن الدائم على أعدائهم من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

نبحر من جديد في سفينة آل محمد عليهم السلام في بحر تتلاطم فيه الأمواج، ثم تتكسر على شواطئه، وبين الموجة والأخرى، نحظى بقطرات أصيلة المنبع، عذبة الطعم، صنَعَت من حواسنا

جـدولاً يغذي العقـل، وبصيرةً أضاءت القلـب، اقتطفناها من كتاب (القبسـات) وعنونَّـا قطرتهـا الثالثـة بــ: (مناهـج بناء الـذات)، هي قطرة من فكر أصيل، رسـمه سـماحة المرجع الديني الكبير، آية الله العظمى المحقق السـيد صادق الحسـيني الشـيرازي -دام ظله- في كتابه الموسـوم، بحليـة الصالحين، وكتابه المعـروف، بالعلم النافع سـبيل النجاة، ومن عبق المرجعية، واقتبسـنا بعضها مـن توجيهاته، ومحاضراته العميقة النافعة.

القـارئ العزيز: إن عنوان هذا الكتاب ومادته تم اقتطافهما من صفحات كتاب (القبسـات) وهـو في حقيقته مجموعـة مقالات تم نشـرها على موقع (شبكة النبأ المعلوماتية) في مساحة زمنية متفرقة، واعتمد الكتّاب في مادتهم الفكرية على فكر سماحة آية الله العظمى المرجع الديني السـيد صادق الحسـيني الشـيرازي -دام ظله- وهو مـن إعـداد مؤسسـة النبأ للثقافـة والإعـلام، وللأمانـة وحفظ الحق الأدبي تم إعادة نشـر مقدمة مؤسسة النبأ للثقافة والإعلام كاملةً، في جميع مطبوعات الأنوار ذات العلاقة بهذا المصدر.

أسـأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا هذا العمل، وأن يكون خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المؤمنين السائرين على نهج أهل البيـت عليهم السلام ويهدي به المخالفين إلى طريق الرشـاد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مؤسسة الأنوار الثقافية العالمية

١٠/ ٥/ ١٤٣٥هـ

مقدمة مؤسسة النبأ للثقافة والإعلام

تحتاج الأمم والشعوب إلى نهل الفكر السليم المعطاء لكي تتجاوز تحديات المعاصرة ومستجدات الحداثة وإشكاليات تداولية الأفكار والمفاهيم والنمو المتضخم في إنتاج الأزمات في عالم اليوم.هذه الحاجة هي أعمق من التوصيف وأبعد من الدلالة عليها، لأنها تتحفز إلى التجسيد عبر السعي إلى.. والتفاعل مع.. والاقتباس من.. ذلك الفكر المتمكن من الامتداد مع تفاصيل الحياة الدقيقة والقادر على النهوض بها بشكل متوازن ومتناسق مع الحق والحقيقة، مع الدين والعلم، ومتناغم مع أهداف الأمة المشروعة في سبيل حياة أفضل.

ولكنه أي فكر؟!

إنـه فكر المرجـع الديني الكبير آية الله العظمى السـيد صادق الحسيني الشيرازي -دام ظله-إنه الفكر المضيء الصادر من مصباح القرآن والنبوة والإمامة، إنه الفكر الممتد مع الأمة والفرد والمجتمع فـي آمالهـا وهمومها ومشـاكلها وأزماتها وتطلعاتهـا وأوجاعها، إنه الفكر الذي يغذي الحياة بمناهج السـمو والتطور والرفعة، إنه الفكر الذي يسـعى إلى بنـاء الذات وبنـاء المجتمع، إنه الفكـر الذي ينمي ويعالـج ويربي ويرشـد ويعلم ويثقف، إنه الفكـر المنفتح على هموم الإنسـان وأزمـات المجتمـع وآمـال الأمة بـلا نخبويـة ولا انعزالية ولا فوقيـة ولا طبقيـة، إنـه الفكر السـامق فـي أطروحاتـه المتعايش لهمـوم الناس ومشـاكلهم وإرهاصات حياتهم السياسـية والدينية و الاجتماعية والثقافية والتربوية.

وإلـى ذلـك الفكر المبـدع المعطاء وردناه آنسـين فيـه حلولاً لأزماتنـا، ومنهجاً لأعمالنا، وعلاجاً لأوجاعنـا، وضمادة لجراحنا، ووسـائلاً لتحقيـق أهدافنـا، فصدرنـا عنـه بهـذه القبسـات المضيئة والمثمرة والتي ما أحوجنا إلى نورها وعطائها.

هي قبسات تنير دروب الحياة وترشد إلى مسالك الحق وترفد الإنسان والمجتمع برؤى لتطوره المستقبلي في ميادين الحياة وآفاق الفكر.

هي قبسات من مصدر امتزجت فيه ينابيع الحكمة بينابيع العلم وتجسـدت عبره تجربة إنسـانية سـامية قدمت فيهـا الحكمة عصارة الحـق، وقـدم فيها العلـم خلاصة الحقيقـة، وقدمت فيها الإنسـانية

شـذرات تجربتها في معارج السـمو، فكانت وتكـون قراءة للباحث وافقاً للمتأمل ونهج بناء للفرد والمجتمع.

هي قبسـات من فكر غذاه الإسـلام فأشـرق بانتمائه، وسـواه القرآن فتسـامق باعتداله، ورسـمت آفاقه النبوة فاتسـع فـي امتداده، وكانـت تربته الإمامة فطابت منابته وثماره، وفوق سـطور المرجعية سـارت كلماته ومفاهيمه فصدقت اعتداله، وبالرغم من اتسـاع بحر الحيـاة المعاصـرة فقد أحاطـت بها سـواحله، واليوم نحـن في هذا الكتـاب نتوقـف في بعض مرافئ ذلـك الفكر العمـلاق الذي تعمق في تفاصيل الحياة اليومية للفرد والجماعات والمجتمع وتوسـع في امتداداتها بتفرعاتها الدقيقة.

هذه القبسـات المعطاء ليسـت خبط عشواء من فكر كله إبداع وسـمو بل إنها قبسـات تحرينا قدر الإمكان أن تعالج قضايا وهموم الفرد والأسـرة والجماعة والمؤسسـة والمجتمـع، تحرينا أن تكون مرشـداً ومرجعـاً للخطاب المتـداول في بناء الذات وفـي إدارة حل الأزمـات وفـي الالتزام الأخلاقـي وفي بناء خطاب ووعي سياسـي سليم ومسؤول.

إنـه خطـاب موجـه للقائـد السياسـي والناشـط الاجتماعي، للرجـل وللمـرأة، للشـباب وللمربيـن. إن المنهج الـذي اتبعناه في عرض هذه القبسـات من فكر المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي هو كالآتي:

١ - إن الإنسـان هـو حجـر الزاويـة في الرسـالات السـماوية

وفي مناهجها في بناء المجتمع وإن إصلاح الإنسان هو الطريق لإصلاح المجتمع سواء مثّل المجتمع بأصغر مؤسسة اجتماعية فيه وهي الأسرة أو باتساعه الأكبر في الأمة تأسيساً على مقولات التشريع الإسلامي في القرآن والسنة ومرويات الأئمة عليهم السلام لذا كان الاهتمام كبيراً بجوانب بناء الإنسان بشكل سليم وصحيح على المستوى الروحي والأخلاقي والذاتي والأسري والثقافي والسياسي، وبالمقابل كان هناك اهتمام بالبناء الذاتي للفرد باعتباره عضواً في مؤسسة اجتماعية أو دينية أو سياسية أو ثقافية فكانت هناك محاور من القبسات اهتمت ببناء القائد السياسي والمربي ورجل الدين والمثقف المسؤول.

٢- كان هناك اهتمام كبير في التوجيه والإرشاد في مجموعة من المحاور وبالمقابل فقد وجدنا إن من الضروري أن لا نكتفي بالتوجيه والإرشاد كما في بعض مواضيع (إضاءات سياسية) بل قدمنا قبسات مضيئة أيضاً من التحليل السليم وإثراء الرؤية من خلال نمذجة التحليل مع أحداث وهموم سياسية يعيشها الإنسان يومياً وتمارس ضغوطاً على واقعه وترمي بظلالها عليه.

٣- إن الإرشاد والتوجيه والنصيحة في قضايا مهمة وخطيرة تمس حياة الناس تستدعي تحليلاً وإضاءات للأحداث والمشاكل والأزمات في أبعادها الاجتماعية والسياسية والثقافية، ولكي نضع أسس صحيحة للتعامل المستقبلي مع مستحدثات العصر ومشاكله لابد وأن ننطلق من مقدمات صحيحة وسليمة للتقييم والتقويم،

لـذا كان لابـد وأن نقدم محاور تهتم بمفاهيم تأسيسـية خصوصاً في العلاقة مع الله سبحانه، وفي التطوير الذاتي وفي بناء المجتمع وفي مجـالات العلاقـات الاجتماعية والثقافة والحرية والنظم السياسـية ومكوناتها.

٤- اهتمت محاور القبسات الفكرية من فكر المرجع الشيرازي بتقديم قضايا محورية في الحياة المعاصرة، تلك القضايا التي تعالج إشكاليات بناء الإنسان والعلاقات الاجتماعية ودور المرأة وحريتها ووظيفـة الثقافة وأهميتها ودور الشـباب ومفهـوم الحرية في الأبعاد المختلفة وأهمية القيادة ونمذجتها في الواقع المعاصر.

٥- الاهتمام بتقديم الشـعائر الحسينية وتنوع أدوارها وفاعلية تأثيراتهـا علـى جميـع شـرائح المجتمـع وفـي جميـع المسـتويات وتقديمهـا عبر عـدة جوانب من الحياة السياسـية والثقافيـة والدينية والاجتماعية.

٦- إن هـذه القبسـات هـي مقـالات نشـرت في (شـبكة النبأ المعلوماتيـة) على مسـاحة مـن الزمن وكانت تعبيراً عما يشـغل بال القـراء وما يتسـاءلون حولـه أو ما يرغبـون بمعرفة كيفيـة التعامل أو التفاعل معه، لذا فإن انتماء هذه القبسـات للنسيج الفكري والعملي المُعاش هو انتماء قار وعميق بل وصادر عنه.

وهـذه الباقـة من القبسـات من فكـر المرجـع الديني آيـة الله العظمـى السـيد صـادق الحسـيني الشـيرازي هـي بداية ندعـو الله عـز وجـل أن يوفقنـا في ديمومتهـا في أجـزاء أخرى لإتمـام الفائدة

ولاكتمال الرؤية. وإنها لبداية متواضعة ومحاولة بكر في رحلة الألف ميل فلعلَّنا بها نخطو الخطوة الأولى ولعلَّنا بها نستثير تفكير الباحثين لتأملها وإثرائها حتى تكتمل جميع جوانبها لنقدم ما فيه الفائدة للإنسان والمجتمع والأمة وهذه هي الغاية النهائية من ارتيادنا لهذا الفكر المعطاء.

والله الموفق لما فيه الخير.

●

خارطة طريق للتطوير الذاتي

التغيير الذاتي ومعايير النجاح

مفـردة التغييـر غالباً ما يُقصَـد بها، التجديد، أو تحويل مسـار الحيـاة نحـو الأفضـل، توافقاً مـع الطبيعة البشـرية التـي تبحث عن الأفضليـة دائمـاً، لـذا ينصـح العلمـاء والمصلحـون والمفكـرون المختصـون بتحسـين الحياة، من خـلال التغيير نحـو الأفضل، عبر انتهاج سـبل وطرائق نفسـية وعملية تسـاعد الإنسـان على أن يكون ناجحاً ومقبولاً لدى الجميع، بسبب احترامه لحقوق الآخرين وقبوله بالمكاسـب التي تتحقق له، وعدم حزنه على الخسـائر والتضحيات التـي قد يتعرض لها، فالحيـاة كما يقول العارفـون أخذ وعطاء، ولا يمكن أن تسـير بوتيرة واحدة، لذا على الإنسان أن يكون مهيّئاً نفسياً لقبول الربح والخسارة في الوقت نفسه، على أن يبقى هاجس التغيير

نحـو الأفضل موجوداً في ذاتـه، وفقاً للمعايير والضوابط الإنسـانية المستمدة من الدين والعرف السائد بين الجميع.

تربية الذات وكبح جموحها.

يتطلـب هـذا الهـدف (التغييـر) كبحـاً لميـول النفـس، حثّـاً متواصـلاً للتمسـك بالمبادئ السـليمة، وعدم الانجـرار وراء ميول النفـس، فهـي غالبـاً ما تدفـع صاحبهـا إلى مـا يريحها وفقـاً للغرائز البشـرية المعروفة، لذا لابد أن ينتهج الإنسان لتحقيق التغيير، مساراً واضحاً يتمثل بتبسيط الحياة، ومن وسائل تحقيق ذلك، الزهد وعدم الفرح بالمكاسـب أو الحزن على الخسـائر، وما إلى ذلك من معايير تنحو إلى اليسر والبساطة، لأن الحياة يمكن تسميتها برحلة الخسائر والأربـاح، لذا على الإنسـان أن يروض نفسـه على ذلـك، طالما أن الأمر له علاقة بالإرادة الإلهية.

يقول سـماحة المرجع الدينـي آية الله العظمى السـيد صادق الحسـيني الشـيرازي -دام ظله- في إحـدى محاضراته القيمة حول هـذا الموضـوع: «ليـس الزهـد أن تمتنـع عـن الطعام والشـراب أو التملـك أو النكاح، بـل حقيقة الزهد أن لا تأسـى ولا تحزن على ما فاتك من ثروات وقدرات مهما كان نوعها، ولا تفرح بما أوتيت مثل ذلك. وهذه منزلة لا يبلغها المرء بسـهولة بل لابدّ له أوّلاً من تمرين متواصل وترويض مستمرّ».

والتغيير هنا ليس معنياً بطبائع الإنسان المتجذرة في ذاته، لأنها

ليست قابلة للتغيير، ولكن هناك درجات يمكن التحكم بها ذاتياً، من خلال إرادة الإنسان نفسها، إذ يقول سماحة المرجع الشيرازي بهذا الخصوص: «ليس المقصود تغيير جذور الطبيعة والعنصر الثابت فيها، بل المقصود درجات الشدّة والضعف والآثار واللوازم التي تترتّب عليها. فنفوس الناس ميالة في الغالب للدعة والراحة، ولا رغبة لها في الأعمال التي تتطلّب جهداً مضاعفاً كطلب العلم مثلاً، ولكنّا نرى بعضهم يتغيّر بفعل الضغوط المختلفة سواء من ذاته أو من الآخرين، فيشمّر عن ساعد الجدّ ويصبح عنده شوق إلى الدراسة بحيث يتحمّل سهر الليالي وشظف العيش من أجل الوصول إلى هدفه».

انتهاج الطرائق الإنسانية للنجاح.

وهكذا فإن قضية التغيير تتعلق بالذات أولاً واستعداد الإنسان للنجاح والعمل الدؤوب من أجل تحقيق الهدف المطلوب، ولكن ينبغي أن يتم ذلك بالطرائق الإنسانية المتفق عليها، أي من دون الإضرار بحقوق ومصالح الآخرين، خاصة إذا عرفنا أن النجاحات والخسائر لا تتعلق بذات الإنسان وحده ولا ينبغي له أن يفرح أو يحزن كثيراً بهذا الخصوص، علماً أن الاستعداد لتغيير الذات من حال إلى حال يختلف من شخص إلى آخر كما يقول سماحة المرجع الشيرازي: «أجل، يختلف الناس في سرعة التغيّر وشدّته. فبعض الطباع تتغيّر بسرعة فيما بعضها الآخر يتغيّر ببطء. وكلما استحضر الإنسان المنافع التي سيجنيها والمضارّ التي سيدفعها من

التغيير، زاد من سرعة تغيّره. وكما تختلف النفوس، فكذلك تختلف الغرائز والطباع في قوّتها وضعفها».

وفي التركيبة النفسية للإنسان تتجذر الطبائع التي تنطوي على اضرار بحقوق الآخرين من أجل تحقيق المصالح الذاتية، هنا لابد للإنسان أن يعتمد المعايير الصحيحة للتغير متمثلة بالتعاليم الدينية والأعراف الإيجابية المتفق عليها، إن حب السلطة والجاه من الطبائع المتأصلة في ذات الإنسان، ولكن هذا لا يعني عدم القدرة على إحداث التغيير المطلوب نحو الأفضل، لذا يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا المجال: «إنّ حب الجاه من الطبائع الأصيلة والقويّة عند الإنسان. وكذلك قد تختلف الأجواء والظروف وعوامل الوراثة والبيئة والتربية وغيرها. إلاّ أنّ الأمر المسلّم أنّ أصل التغيير ممكن».

ما يملكه الإنسان أمانة في عنقه.

إن أساس الأخطاء التي يرتكبها الإنسان تجاه الآخرين، هو حبه لذاته، وعدم سيطرته عليها، وبحثه وسعيه الدؤوب لتحقيق النجاحات، حتى لو تمّتْ بأسلوب التجاوز على الآخرين، لذا لابد أن يتجاوز الإنسان عقبة (الفرح بالنجاح والحزن من الخسارة)، وعليه أن يتعلم ويؤمن بأن كل ما يملكه هو أمانة في عنقه، ولتحقيق هذا الهدف يقول سماحة المرجع الشيرازي: «كيف يستطيع الإنسان أن يكيّف نفسه لكيلا تأسى على ما فاتها ولا تفرح بما أوتيت؟ للإجابة أقول: هناك طريق واحد، حيث كلّ الطرق ترجع إليه،

وهـو مـا افتتحنا بـه الحديث، بأن يتذكّر الإنسـان دائماً أنّ كلّ شـيء أمانـة في رقبتـه وعارية لديه، وأنّ الأمانة لابدّ مـن إرجاعها يوماً إلى صاحبهـا ومالكها الحقيقـي. فالمال أمانة والعلم أمانـة والجاه أمانة وكـذا الصحّة والأولاد والأهـل والزوجة والعقار وجسـمه وروحه وكلّ شـيء عنده هو أمانة، حتى السفر مثلاً لو كانت وسائله مهيّأة له ولكنـه لأسـباب لم يتحقق لا ينبغي له أن يحـزن لأنّه كان أمانة! وإذا اسـتطاع الإنسان أن يركّز على هذا الأمر فسـتخفّ الوطأة عنده شيئاً فشـيئاً حتى يبلغ مرتبة يصدق عليه أنّه لا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما أتاه».

لـذا يتطلب بلوغ هذه المرتبة نوعاً مـن تربية الذات وتغييرها، وهـو أمـر يتحقق بالتربية السـلوكية والنفسـية للإنسـان، لهـذا يقول سـماحة المرجع الشيرازي في هذا الصدد: «إنّ تألّم الإنسان لفقدان بعض الأشـياء -كالصحّـة مثلاً- أمر فطـريّ، ولكـن التربية تخفّف الوطـأة على الإنسـان وتزيل الألـم المضاعف. فتارة يتألم الإنسـان بدنيّاً بسـبب مـرض ألمّ به، وتارة يتألم نفسـياً نتيجة الشـعور بفقدان الصحة، وهذا أيضاً شـيء طبيعي، ولكن التركيز على الألم النفسـي والتحسّـر وما أشبه هي الأمور التي تنهض التربية بإزالتها كلّما تذكّر الإنسـان أنّ كلّ ما يملكه حتى صحّتـه وبدنه وروحه أمانة وليس هو مالكها الحقيقي».

إذن قضية التغيير الذاتي تتطلب استعداداً لكبح رغائب النفس، والكـف عـن الفـرح بتحقيق نجاحات قـد يكون مصدرهـا مصائب

الآخريـن، والكف عن الحـزن الذي ربما يجعل حياة الإنسـان أكثر توازنـاً وبسـاطة بـل وسـعادة، لذا علـى الإنسـان أن يتحلـى بإيمان قاطـع بـأن الأمور كلها تعود إلـى الله تعالى، يقول سـماحة المرجع الشيرازي حول هذا الموضوع: «المطلوب من كلّ إنسان أن لا يفرح أو يأسـى على شـيء ما يحبـه ويهواه، وعليـه أن يتذكّر دائمـاً أنّ كلّ النعم التي عنده هي من الله عزّ وجلّ، فإن تجدّدت فهي نعمة أخرى ينبغي الشكر عليها، وإن زالت فهذا شأن الدنيا ونعيمها، فكلّها أمانة عند الإنسان لابدّ أن يفارقها يوماً تأخّر أو تقدّم».

ما هو السرّ في تحقيق الشخصية الناجحة؟

تتطلب الحياة المعاصرة جهداً متفرداً من لدن الإنسان لكي يكون ذا شخصية متفردة ومعاصرة في آن واحد، فالحياة فيما مضى كانت من البساطة بحيث لا تشغل الإنسان بالمطالب المادية الكثيرة والمتنوعة كما هو الواقع الراهن، ولذلك فإن الإنسان الناجح في محيطه الآن يُعدّ من النماذج الراقية التي يُحتذى بها، لا سيما إذا كان النجاح قائماً على الالتزام ومراعاة الآخرين كمراعاة الذات وفق مبدأ المساواة بين حب النفس والآخر بمعيار واحد.

وغالباً ما تتشكل شخصية الإنسان الناجح تحت تأثرّه بشخصيات تأريخية خالدة يكون لسماتها ومواصفاتها حضور قوي وواضح في تشكلها، وعندما نبحث في سر النجاح الذي يتحقق لهذا

الإنسان أو غيره ونحاول أن نستغور الأسباب التي تقف وراء هذا التفرد سواء في الفكر أو السلوك، فإننا سنجد في سمة اللين واللطف واحترام الآخر مظاهر وجواهر أساسية لمثل هذه الشخصيات، ولذا فإن الإنسان الذي يقتدي بشخصية خالدة ويكون لتأثيرها وجوداً بيّنا في تشكيل شخصيته، فهو لا ريب سيحقق مبتغاه الذي يبغي من خلاله النجاح في حياته وفق الاشتراطات التي تضع الحكمة والتعقل والإيمان واحترام الذوات الأخرى في مقدمة المحددات للفكر والسلوك معاً.

وفي هذا المجال نقرأ في الكتاب القيّم الموسوم بـ (العلم النافع) لمؤلفه المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي قوله: «لو أردنا أن نبحث عن الإنسان الناجح والموفّق في حياته، فلا ريب أننا سنجده في ذلك الذي اقتدى بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته -سلام الله عليهم- ولاغرو أن يكون أحسن الناجحين والموفّقين في الحياة؛ وذلك لأنّ الرسول الأعظم، كان المثل الأعلى للإنسان في قوله وصمته، وسرّه وجهره، وفي فعله وتركه، وفي كلّ أحواله، بل فاق وسما على كلّ الشخصيات في العالم منذ بدء الخلق وحتى انتهائه، بشهادة المؤمنين به وغيرهم».

إذن فمن يضع الشخصية الخالدة بأفكارها وسلوكها كنموذج للسير على هديه، فإنه لا ريب سيحقق ما يهدف إليه لا سيما أننا نعيش في عصر شائك تتداخل فيه النوايا والأفعال وتتعدد وتتنوع الأنشطة لدرجة أن بعضهم يغيب عنه النموذج فيشتط في السلوك

أو الفكر أو الإثنين معاً ويوغل في التجاوز على حقوق الآخرين من دون أن تردعه الذات أو الأخلاق أو الدين بل تعجز في ردعه جميع المحـددات المعنوية والرقابة الذاتية بل حتى القوانين الوضعية ربما تقـف عاجـزة أمام ردع الشـخصية السـلبية التـي افتقـدت للنموذج التأريخي الإيجابي.

وهنا تكمن أهمية أن يبحث الإنسان دائماً عن نموذجه الأمثل، لأنه سيصل إلى ضالته من خلال معرفته للعنصر أو السر الذي جعل من هذه الشـخصية متفردة في زمانها وخالدة على صفحات التأريخ كما هو الحال مع الشخصية العظيمة التي يتحلى بها رسولنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

حيث يقول سـماحة المرجع الشـيرازي في كتابه نفسـه: «لقد ألّـف كاتـب مسـيحيّ كتابـاً دوّن فيه أسـماء أعظم مئة شـخصية في تاريـخ العالـم أو (المئة الأوائل) كما سـمّاهم، وذكر في المقدّمة أنّه جعل الترتيب حسـب الأولوية من حيث نجاح الشخصية في حياتها وتحقيقها للأهداف التي كانت تصبو إليها، وليس حسـب التسلسـل الزمني، فجعل -رغم أنّه رجل مسـيحيّ- اسـم نبيّنا أوّل الأسماء إذ عدّه صلى الله عليه وآله وسلم الشخصية الأنجح».

ولعـل السـر فـي هـذا النجـاح كمـا يقـول سـماحة المرجـع الشـيرازي يكمـن في صفـة (اللين والرحمة) التـي يتميز بهـا النبي الأكرم في تعامله مع الآخرين، فالشـخصية الناجحة هي التي تُـؤْثِـر الآخر على نفسـها سـواء كان ذلك في الجانب المادي أو المعنوي،

فكلما كان الإنسان لطيفاً سمحاً وكريماً في تعامله مع الآخرين كلما كان أكثرا حضوراً بينهم وأكثر تأثيراً بهم، ولنا في شخصية رسولنا الكريم نموذجاً خلاّقاً في هذا المجال، فـ«لقد عاش النبيّ في قومه أربعين سنة لم يُعرف عنه أنّه آذى أحداً، بل كان الوحيد الذي لُقّب من بين العرب بالصادق الأمين» كما ورد في كتاب سماحة المرجع الشيرازي.

وهكذا تعدّ الرحمة واللين سرّاً وعنصراً هامّاً من أسرار أو عناصر بناء الشخصية الناجحة في المجتمع، كونها تؤدي إلى سعادة الناس والتأثير بهم كي يصبحوا أناساً فاعلين منتجين صالحين في المجتمع، ولا يتحدد مثل هذا السلوك مع أناس دون غيرهم، فالجاهل وغيره يستحقان الرحمة والتعامل اللطيف لأنه بالنتيجة سيقود إلى تشذيب شخصياتهم وإصلاحها، يقول سماحة المرجع الشيرازي بكتابه نفسه في هذا الصدد: «إنّ مطالعة سيرة الرسول ﷺ تكشف لنا أنّه كان بإمكانه أن يقتل أعداء الرسالة -ويحقّ له ذلك- لكنّه مدّ لهم يده الرحيمة وأخرجهم بأخلاقه العظيمة مما هم فيه من هاوية الوثنيّة والشرك، لأنّه نبيّ الرحمة واللين، كما عبّر القرآن الكريم».

وهكذا فإن الرحمة والتسامح والتعامل بلطف مع الجميع سيجعل من شخصية الإنسان فاعلة منتجة إيجابية ومتفردة في آن واحد، وما أحوجنا لمثل هذه الشخصيات في ظل الظروف القاهرة للعصر الراهن.

تطور الإنسان سنّة من سُنن الحياة

منـذ أن وطـأ الإنسـان هـذه الأرض وهـو مجبـول على حب الإطـلاع والمعرفة ومأخوذ بالكشـف عن أسـرار الأمور والأشـياء الغامضـة لديه، وقد زرع الله تعالى هذه الخصلة في الإنسـان وميزه بهـا عن سـائر الكائنات الأخرى حين وهبه العقـل وحباه بالمواهب المتعـددة التي تنتج عـن الجينات الوراثية أو تلك التي تُكتسـب من خلال الاختلاط والسـعي في كسـب العلـوم والتجـارب المتنوعة. لذلـك نرى الإنسـان حتى في عصـور الظلام والجاهلية كان يسـعى إلـى الجديـد كـي يطـور حياته، فاكتشـف النـار حين ضـرب حجراً بحجـر، ثـم طور لغته من الرموز والإشـارات إلـى الأصوات ليصل بعد ذلك إلى القفزة النوعية في تأريخ التطور البشري حين لم يكتف

باللغة الصوتية فاكتشف التدوين وحول هذه اللغة من صوت إلى مخطوطات ليحقق بذلك أكبر قفزة نوعية وعلمية في حياة الإنسان.

لهذا يكمن شعور التطور ووجوبه في أعماق الإنسان، غير أن هذا الأمر لا يتوقف عند حدود الرغبة فقط، بمعنى أن تطور الإنسان لا يتحقق فقط تحت شرط الرغبة أو وجودها أو حتى تناميها لدى الإنسان، بل يكمن في سعيه الدؤوب لما هو أفضل، حيث يصبح يومه أفضل من أمسه، وما عدا ذلك فلا شيء يستحق الذكر، بمعنى أن الإنسان إذا لم يتقدم في يومه هذا على أمسه الذي مضى فإنه سيظل (يراوح) في مكانه، مما يعني وجوب الأفضلية لليوم على الأمس، وقد قال المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي بهذا الصدد في كتابه القيّم الذي يحمل عنوان (العلم النافع): «قال الإمام الصادق -سلام الله عليه-: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كان آخر يومه شرّهما فهو ملعون». وقال مولانا أمير المؤمنين -صلوات الله وسلامه عليه-: «الكيّس من كان يومه خيراً من أمسه». هذه الحالات الثلاث التي وردت في الحديثين الشريفين ترتبط بكلّ فرد، مهما كان دوره في الحياة، سواء كان عالماً أو جاهلاً، كاسباً أو موظّفاً، ورجلاً أو امرأة».

نلاحظ هنا أن تطور حياة الإنسان أو وجوبها لا ينحصر بالإنسان العالم أو الموظف أو الرجل فحسب، بل الجميع تقع على عاتقهم مسؤولية تطوير الحياة إلى ماهو أفضل وجعل وقائع اليوم ومنجزاته أفضل من وقائع الأمس ومنجزاته، فالجاهل كما

يرى سماحة المرجع الشيرازي ليس مستثنى من دور التطور اليومي المطلوب في الحياة، ولعله مطالب في هذه الحالة بتطوير ملكاته ومواهبه على ضعفها أو قلتها، ثم قيامه بدوره في تحقيق اليوم الأفضل من الغد.

لذلك فإن الإنسان مهما كانت قدراته قوية أو ضعيفة حين يتساوى جهد يومه الحالي مع أمسه الماضي فإنه سيكون من المغبونين، بمعنى أنه أضاع عمره هدراً حين لم يشترك في تقديم الأفضل لكي يسهم بدرجة أو أخرى في تطوير البشرية، وفي هذا المجال يقول المرجع الشيرازي في كتابه نفسه: «ومعنى المغبون: هو بيع الشخص شيئاً ثميناً بقيمة بخسة أو شرائه شيئاً رخيصاً بسعرٍ غالٍ، وبالطبع ستكون نتيجة هذا العمل هي الحسرة والندم.

ويضيف سماحته: إن خسر المرء أو فَقَد ثروته فيمكنه أن يعوّض عنها في يوم ما، أما خسارة العمر فلا يمكن التعويض عنها أبداً، فما فات لا يرجع، وكلّ إنسان يقضي عمره وأيّام حياته تبعاً لواحدة من تلك الحالات الثلاث فلا بدّ أن يكون قد غبن نفسه».

لذلك فإن خسارة الثروة ستكون أقل فداحة ومضرة من خسارة العمر من دون مقابل، من هنا كان سعي الإنسان ولايزال وسيبقى نحو التطور والأفضلية أحد أهم عوامل التطور البشري، وسنة قائمة من سنن الحياة، وهكذا يقع الإنسان تحت طائلة وجوب السعي الدائم بغض النظر عن قدراته الفكرية أو المعنوية أو المادية، لأنه في حالة العكس، سيكون خسرانه غير قابل للتعويض إلى الأبد وفي

هذا المجال جاء في كتاب العلم النافع لسماحة المرجع الشيرازي:

«فمن استوى يوماه فهو كمن خسر ثروته. وهكذا من لم يرتقِ في طلب العلم، أو في التقرّب إلى الله تعالى بالعبادات وخدمة الناس والتعامل الحسن مع عائلته وأقاربه وأصدقائه، فهو كمن خسر عمره. فالكيّس -كما ورد في الحديثين أعلاه- من كان يومه خير من أمسه، والملعون -والعياذ بالله- هو من كان يومه أسوأ من أمسه».

إن القدرات الجسمانية والفكرية عند الإنسان تتيح له التطور الدائم، فقد حباه الله بنعم كثيرة تقف إلى جانبه وتساعده كي يكون عنصراً جيداً وفاعلا في الحياة، بل وعاملاً إيجابياً لخلق مجتمع إنساني قائم على العدل والمساواة والتسامح وعلى قاعدة دينية وعلمية رصينة، وهنا يؤكد سماحة المرجع الشيرازي على أهمية أن يستغل الإنسان جميع الطاقات التي أنعم بها الله تعالى عليه، ويوظفها بالطريقة المثلى من أجل تطوره بشكل يومي حيث يقول سماحته في كتابه (العلم النافع):

«لقد منّ الله تبارك وتعالى بنعم كثيرة على الإنسان كالسمع والبصر والحياة، والعقل الذي جعله الله تعالى معياراً للثواب والعقاب، والقدرة على الفعل والإنتاج. إذاً ينبغي للمرء أن يستفيد من هذه النعَم بشكل صحيح ويستثمرها في أن يعزم ويبذل ما في وسعه لأجل أن يكون يومه خيراً من أمسه، وشهره الذي فيه خيراً من شهره الذي فات، حتى لا يتحسّر على ساعات وأيّام حياته، ولكي ينال التوفيق والسعادة في الدارين».

مراجعة الذات وتهذيب النفس من العيوب

لم يستطع الإنسان العادي أن يحقق حلمه المثالي بالوصول إلى درجة الكمال، ولم يتمكن من شطب العيوب التي لابد أن ترافق نشاطه الفكري والعملي سواء عن وعي أو من دونه، لهذا ترى الإنسان يعاني من بعض العيوب التي ربما لا يدرك وجودها في شخصيته أو أنه لا يعرف بتلك العيوب إلا بعد عمر طويل. يقول سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي -دام ظله- في مؤلَفه القيّم الموسوم بـ (حلية الصالحين) حول هذا الموضوع: «قد تكون في الإنسان خصلة ولكنه لا يعلم بوجودها، وقد يعلم بها ولكنه لا يعلم أنها عيب يوجب التغيير، وقد يعلم بها ويعلم أنها عيب ولكنه قاصر عن إصلاح نفسه والتخلّص

منها، وقد يكون مقصّراً».

والعيوب على ما هو متعارف متنوعة وقد يكون الفرد سبباً مباشراً في حدوثها أو وجودها في سلوكه وتفكيره وربما تكون مكتسبة بصورة غير مباشرة، إذ يؤكد سماحة المرجع الشيرازي في هذا الصدد قائلاً: «إن المثال على ما تقدم الجهل، فالإنسان يُعاب عليه، ولكن قد يكون جهله عن قصور، لأنه لم يسعه أن يتعلم، وقد يكون مقصراً، كما لو أمكنه التعلّم ولكنه تلكّأ عن الأمر، فعلى أي من هذه الحالات يُعاب؟ الجواب: يُعاب على كلها».

وهذا دليل على أن الإنسان لاسيما بعد بلوغه مرحلة الوعي هو المسؤول الأول عن نفسه وعن مزاياه وعيوبه، كونه تجاوز مرحلة الطفولة وقلة أو غياب الوعي إلى مرحلة أعلى تتيح له الفرز بين ما هو جيد وبين ما هو سيّئ. لذا ثمة مرحلة تتطلب من الإنسان أن يرصد أخطاءه من خلال مراقبته الدائمة لسلوكه المستقى من أفكاره وطبيعتها ومساراتها، مثل هذا الرصد والمراقبة لابد أن يقود الإنسان إلى مراتب أعلى وأجود في مراحل بناء الشخصية، وليس من العيب قط أن يتابع الإنسان عثراته بل ليس من العيب أن يعترف بها (فالاعتراف بالخطأ فضيلة)، وبهذا يكون أكثر استعدادا للتصحيح والتطور.

ولا يقتصر العيب على الفكر بل قد تدفع مداخلات الحياة نوازع الإنسان نحو الزلل فيرتكب أخطاء متنوعة، وفي هذا الصدد يقول سماحة المرجع الشيرازي في كتابه نفسه: «قد يكون العيب

شـرعياً كارتكاب الحرام والمكروه، أو عرفياً أو أخلاقياً مثل العجلة وعـدم التأنـي، والغضب، والتكاسـل وما أشـبه، فالمفهوم يشـملها جميعا».

ومن العيوب التي رصدها الشرع تلك التي تنتمي إلى العرف، حيـث أكـد سـماحة المرجـع الشـيرازي قائـلاً: «لقـد اعتبر الشـرع العيـوب العرفية نقائـص، وأوصى بالتخلص منهـا، وخير مثال على ذلك، رفضه للباس الشهرة». فالشهرة غالباً ما تقود الإنسان إلى سمة معيبة كالغرور والتعالي على الآخرين، لهذا لابد للإنسـان أن يراقب نفسـه في حالـة النجاح أو الفشـل. وهذا يؤكد أن نجاح الإنسـان لا يعني أن شخصيته خالية من العيوب، في حين لابد أن يتسبب الفشل نتيجة لعيوب معينة تقف وراء ذلك، ولذا لاينبغي للإنسان أن يتخلى عن متابعة نفسه ومراقبتها في حالتي النجاح والفشل معا.

ويُذكّرنـا هـذا الرأي بما دعى لـه أحد العلماء حـول أهمية أن يحدد الإنسان وقتاً للاختلاء بنفسه يومياً ومحاولة استخلاص نتائج أعمالـه وأفكاره ومراقبة الـذات لتخليصها من الأخطـاء أو العيوب التي قد تشوب أعمالها وأفكارها وربما نواياها أيضا.

وقد يشترك خرق الإنسان للعرف والشرع معاً في تكوين إحدى العيوب ولصقها بشـخصيته، أي ربمـا تنطوي ذاته على عيب مركّب نتيجة لتجاوز شرعي وعرفي، إذ يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا الصدد: «قد تكون عند الفرد خصلة أو خصال يُعاب عليها شرعاً أو عرفـاً ولكنـه لا يعلم بوجودهـا أو بأنها معيبة، وهـذا هو الجهل،

ويعدّ صاحبها قاصراً، فربما ينتبه المرء بعد خمسين سنة أو أقل أو أكثر إلى أنه كان مبتلى بخصلة معيبة طيلة العقود الماضية من عمره، فيندم ويتألم، وحقّ له ذلك».

وفي كل الأحوال ليس العيب أن يتنبه الإنسان للخصال السيئة التي قد تلتصق بشخصيته لسبب أو لآخر، ولكن من العيب عدم الاعتراف به، أو التغاضي عنه وتجاهله، وعدم السعي لتصحيحه بسبب شعور الإنسان بالعزة، فلكي يطوّر الإنسان شخصيته ويضمن نجاحه الفكري والمادي في الحياة عليه أن يتتبع العيوب التي قد تنطوي عليها شخصيته وعليه معالجتها بالطرق المثلى التي تحقق له نسباً عالية من النجاح والتطور.

فرص الإصلاح بجهود استثنائية أصحاب الحِجْرْ نموذجاً

حينما وطأ الإنسان الأرض، لم يتركه الله تعالى حائراً تائها في عالمه الجديد الغامض الذي لم يعرف عنه شيئاً، بل ساعده على تحصيل المعرفة من خلال إرسال الأنبياء بصورة متتالية إلى أقوام الأرض المتعددة، ولأن الإنسان ينطوي في تركيبته النفسية على الكثير من المزالق والمهلكات، فإنه يحتاج إلى النصح والإرشاد بصورة دائمة.

من هم أصحاب الحِجْرْ؟.

وقد قامت الأديان السماوية المتتابعة بهذا الدور الضخم، ألا وهو دور إصلاح البشرية وتقويم أنشطتها وضبطها وفقاً لتعاليم

سماوية بالغة الدقة، وكان الأسلوب القصصي التوجيهي هو الغالب في النصوص القرآنية الشريفة، كما نقرأ ذلك في قصة (أصحاب الحجر) التي وظَّفها سماحة المرجع الديني، آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي -دام ظله- في إحدى محاضراته الدينية التوجيهية القيّمة، منوهاً عن معلومات تتعلق بهؤلاء القوم ونبيهم الذي أرسله الله تعالى لهم باعثاً للمعرفة وناشراً لها بين أوساطهم، إذ يقول سماحته: «أصحاب الحجر هم قوم النبي صالح وهو مدفون مع النبي هود عليه السلام حيث مدفن الإمام أمير المؤمنين -سلام الله عليه- في وادي السلام في النجف الأشرف.

ويستحبّ زيارتهما بعد الفراغ من زيارة أمير المؤمنين، كما يستحبّ زيارة آدم ونوح، فهما مدفونان هناك أيضاً. أمّا الحِجْرْ فهو إسم المنطقة التي بُعث فيها النبي صالح لهداية أهلها، فسُمّوا بها. ولم يكن صالح أوّل نبي يكذّبونه فلقد كذّبوا أنبياء آخرين سبقوه بعثهم الله إليهم قبل صالح عليه السلام، وكان هؤلاء الأنبياء الذين أرسلهم الله إليهم مشفوعين بالآيات والمعجزات التي تثبت كونهم مبعوثين من قِبَل الله تعالى، ولكن ذلك لم ينفع مع أصحاب الحِجْرْ وكانوا -كما أخبر الله تعالى عنهم- معرِضين عن تلك الآيات والدلالات!».

إذن من طبيعة الإنسان التردد والمماطلة في قبول الجديد حتى لو كان صحيحاً، الأمر الذي يتطلب جهوداً كثيرة ومتواصلة تحث الإنسان على ولوج طريق الإصلاح والسير وفق منهجه، وعلى المعنيين بصلاح الإنسان أن لا يكلّوا ولا يملّوا من أعمال النصح

والتوجيه حتى لو فشلوا مراراً وتكراراً في مهامهم الإصلاحية، يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا المجال: «لقد لبث صالح عليه السلام فيهم -كما في الروايات الواردة عن المعصومين صلوات الله عليهم- يدعوهم إلى الله مدّة مئة وستّ عشرة سنة، لم يؤمن به خلالها أكثر من سبعين منهم أي بمعدّل أقل من شخص واحد خلال كلّ سنة! وفي هذا دلالة على أنّنا ينبغي أن لا نتعب أو نملّ ونضجر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كانت الاستجابة قليلة والتأثير بسيطاً».

الإصرار على الإصلاح.

لذا ينبغي تبيين الأمر الصحيح من الخاطئ بخطاب صحيح وبسيط ومقنع في آن واحد، بمعنى يجب أن يفهمه المتلقي ويقتنع به حتى يعمل بما يريده من توجيه، حيث أكد سماحة المرجع الشيرازي على ضرورة الفهم والإقناع قائلاً في هذا الصدد: «لا يكون الإعراض إلاّ بعد أن يتبيّن الأمر، ولذلك نرى القرآن الكريم يذكره بعد ذكر إيتاء الآيات والبينات. فإنّ مَن لا يعلم أنّ الحجّ واجب عليه ولا يحجّ لا يسمّى معرضاً. أمّا مَن علم بوجوب الحجّ عليه ولم يحجّ مع ذلك يقال إنّه أعرض عن الحجّ. وهكذا الحال مع أصحاب الحِجْرْ فإنّهم استمرّوا في تكذيب أنبياء الله حتى بعد نزول الآيات ومشاهدة المعجزات، أي أنّهم أعرضوا عن الآيات».

ومع أن المعجزات غالباً ما تدعم ما يدعو له الأنبياء من مناهج ومسارات إصلاحية، إلا أن الأقوام غالباً ما كانوا يُكَذِبون أنبياءهم، حتى مع رؤيتهم للمعاجز الكثيرة والكبيرة، ومنها ناقة صالح كما

يقـول سـماحة المرجـع الشـيرازي في محاضرتـه هـذه: إن «أعظم آيـة ومعجزة للنبي صالـح هي الناقة. فقد طالبـه جماعة من قومه أن يُخـرج لهم ناقة من بطن الجبل ليتبيّن لهم صدق دعواه، فإنّه إن كان نبيّـاً اسـتجاب الله دعوته. ولـم يردّ صالح عليه السلام طلبهـم فتوجّه إلى الله تعالى وسـأله ذلك، فخرج صوت رهيب من الجبل وانشـقّ إلى نصفيـن ثم خرجت ناقـة عظيمة قيل إنّها كانت تعـادل في ضخامتها عشرات النوق، يتبعها فصيلها. وهذا ليس بعزيز على الله، فلقد خلق آدم وحـواء من قبل من دون أبوين، وخلق عيسـى من أمّ فقط. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾».

صعوبة إقناع المعاندين.

لقد تجسدت معجزة النبي صالح عليه السلام بوضوح كبير وواقعي فـي ناقته، أمام القوم، لكنهم مع ذلك لم يقبلوا بمنهج الإصلاح لأنه لا يتفق مع طبيعة حياتهم آنذاك، وهذا يدل على أن الإصلاح يتطلب جهـوداً مضنية وكبيـرة يتقدمها الإصرار والصبر حتـى تحقيق الغاية المطلوبة وهي إصلاح الناس، يقول سـماحة المرجع الشـيرازي في محاضرتـه: «كانت الناقة وَبْرَاء جميلة تسـير بسـيرة الإنسـان العاقل الحكيـم الـذي لا يؤذي أحـداً. فكانت لا تؤذي شـخصاً ولا حيواناً ولا زرعـاً ولا شـيئاً، كالإنسـان المؤمـن الحكيم. وكانـت تأكل من حشـائش الأرض حتـى إذا وصلـت زرع النـاس لـم تنـل منـه حتى بمقدار حبة، وكانت لا تطأ في سـيرها زرع أحد أو إنسـاناً أو حيواناً أو حشرة رغم ضخامتها بل كانت تتحاشى ذلك في مشيها وسيرها،

وكانت الحيوانات الأخرى تخشاها بقدرة الله تعالى. وهكذا كانت إعجازية في كلّ شيء، وليس في وجودها وخلقتها فقط. فلقد كانت تشرب في اليوم الواحد ماء القرية بأكمله، أي الماء الذي يشرب منه مئة ألف إنسان مثلاً، وتدع اليوم الذي يليه لأهل القرية يشربون منه. فكان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم كما ورد في الآية الكريمة في قوله تعالى: «قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم» ومع ذلك «أعرض أصحاب الحِجْرْ عن الآيات كلّها وقرّروا قتل الناقة بزعم أنّها تحرمهم من الماء يوماً كاملاً، مع أنّهم كانوا يستفيدون حليباً! ولكنّه الطغيان - والعياذ بالله!-».

إن هذه القصة القرآنية الشريفة تريد أن تؤكد على أهمية عدم التراجع عن إتمام منظومة الإصلاح ونشرها كمنهج فكري سلوكي في المجتمع، حتى لو تكرر الفشل لأي سبب كان، لأن الإصلاح بحد ذاته عملية بالغة الصعوبة وتحتاج إلى آليات عمل تتمثل بالإصرار والتواصل في منهج يقوم على الوضوح والسهولة والإقناع، وهي أمور يحتاجها المسلمون في عالم اليوم أكثر من أي وقت مضى، لذا يقول سماحة المرجع الشيرازي في محاضرته بهذا الخصوص: «هنا أخبرهم نبيهم عليه السلام أنّ الله سينزل عليهم العذاب بعد ثلاثة أيام، تصفرّ وجوههم في اليوم الأوّل، وتحمرّ في اليوم الثاني، وتسودّ في اليوم الثالث! ثمّ ينزل عليهم العذاب إن لم يرجعوا حتى ذلك الحين! سبحان الله! وما أعظم رحمته! فمع أنّ هؤلاء القوم كذّبوا المرسَلين واستمرّوا في تكذيبهم حتى بعد نزول الآيات، يمهلهم الله تعالى ثلاثة أيام عسى أن يتوبوا فيعفو عنهم ويقبلهم».

إصلاح الذات خطوة أولى في القضاء على منظومة الفساد

الفساد كلمة ذات مدلولات واسعة كثيرة ومتعددة أيضاً، فهي قد تعني فساد الذات الفرد، أو الجماعة، وقد تعني فساد النفس، أو الفساد المادي بمدلوله العام والواسع، كالاختلاس والتجاوز على المال العام، أو السرقات الفردية والجماعية التي تشكل تجاوزاً خطيراً على حقوق الآخرين.

وأصعب أنواع الفساد، هو فساد الذات أو النفس، لأنها لا تتعلق بالجانب المادي بل الروحي، ولهذا ينبغي أن يكون العلاج روحياً أيضاً، وهنا تظهر لنا القدرة الفائقة لتعاليم الدين، وتلاوة القرآن، والتمعن بمفاهيمه وتعاليمه، وكذلك قراءة الأدعية والخشوع لله تعالى، طلباً لتنظيف النفس من الرغائب الكثيرة غير

المشروعة، والتي يخضع لها الإنسان إذا كان ضعيفاً ومنقاداً لأهواء النفس ونزواتها.

لذا يعد أخطر الحكام، هو ذلك الحاكم الضعيف تجاه نفسه وأهوائها، فهو شديد البأس مع قومه وشعبه وأمته، وضعيف أشد الضعف تجاه نزواته التي تستلزم أموالاً وفيرة لتحقيقها، فتدفعه إلى التجاوز على المال العام بشتى الطرق والوسائل والأساليب السيئة، الأمر الذي يتسبب بإلحاق الظلم الفادح بالشعب أو الأمة وفقرائها، حيث تبدأ الغلظة وشهوة السلطة تطيح برقاب الضعفاء ممن يرفع صوته، لمقارعة ظلم الحاكم واستهتاره بالقيم وفساده الكبير والواضح للعيان.

لهذا يؤكد سماحة المرجع الديني، آية الله العظمى، السيد صادق الحسيني الشيرازي -دام ظله- في معظم مؤلّفاته ومنها كتابه القيّم الموسوم بـ(حلية الصالحين) على أهمية تشذيب الذات من الفساد، على أن الفساد له اتجاهات ومسارات ونتائج قد تكون متناقضة، لهذا ربما يقع الإنسان في هذا النوع من الفساد أو ذاك.

يقول سماحة المرجع الشيرازي، في هذا الصدد بكتابه المذكور آنفاً، استناداً إلى ما ورد في الصحيفة السجادية: «واستصلح بقدرتك ما فسد مني»: «إن الإنسان معرَّض للفساد، فقد يقع فيه وقد لا يقع، والكلام هنا عن فعلية الفساد ووقوعه، لأنّ الإمام السجاد عليه السلام يقول: «ما فسد منّي» لا ما يقتضي أن يفسد، وليس كلّ فاسد يمكن إصلاحه بسهولة، علماً أنّ كلمة «ما» الموصولة في قوله

-سلام الله عليه-: «ما فسد منّي» تفيد العموم والسعة والشمول، فتشمل ما فسد من أمور الدنيا والآخرة، ومن البدن والنفس، وكذا في المسائل المالية والنفسية والاجتماعية وغيرها».

ونظراً للخطر الكبير لمنظومة الفساد، وربما تجذّرها في النفس، فإن اللجوء إلى الله تعالى لمساعدة الإنسان، لاسيما ذوي المسؤوليات والسلطان الواسع، ينبغي أن يكون وسيلة الإنسان لإصلاح ما قد يفسد في ذاته، ولأن السلطة لها سحرها الخاص كما تشير تجارب البشرية جمعاء، فإن أمر معالجة النفس وطموحاتها ورغباتها ونزواتها، خاصة لأصحاب السلطان كالملوك والرؤساء والحكام وأمثالهم، تتطلب لجوءاً حتمياً إلى الله تعالى، لمساعدة الإنسان الحاكم على تجاوز معضلات الفساد الذاتية التي تتجذّر في نفسه.

فالتأريخ يعج بالحكام الطغاة الظالمين، بغض النظر عن رمز التسلّط، فإذا كان رئيساً جمهورياً، أو ملكاً، أو حاكماً، قد لا تختلف جذور الفساد بين هذا وذاك، فالحجاج بن يوسف الثقفي، لم يكن ملكاً ولا رئيساً ولا حاكماً للدولة، لكنه كان والياً على جزء صغير من الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، ومع ذلك تسببت نفسه الشريرة بأن يصبح مضرب أمثال للحكام الطغاة على مر التأريخ، بسبب قتله لمئات الآلاف من الناس، سواء بالمقصلة أو بتركهم في السجون حتى الموت.

لهذا السبب يركّز سماحة المرجع الشيرازي، في كتابه (حلية

الصالحين) على ما يهدف إليه الإمام السجاد عليه السلام من تنوير للإنسان كي يحارب الفساد في ذاته، إذ يقول سماحته في هذا المجال: «لا يخفى أنّ الإمام هنا بصدد تعليمنا وإرشادنا، فمعنى قوله -سلام الله عليه- هو: إنّ الإنسان لا يقوى على إصلاح ما فسد منه دون الاعتماد على قدرة الله تعالى وتوفيقه، فكلّ منا يمكنه أن يكون من خيار الناس، كما يمكن أن يكون من شرارهم -والعياذ بالله- فهؤلاء الأشرار الموجودون في المجتمع والذين بقوا كذلك حتى آخر عمرهم كانوا أناساً أيضاً، ولكنّهم لم يريدوا الصلاح، ولا استعانوا بقدرة الله تعالى لإصلاح ما فسد منهم، فاستمرّوا على ما هم عليه».

ولا يخفى على الجميع بأن إصلاح الفاسد، كما يؤكد سماحة المرجع الشيرازي بحاجة إلى الدعاء، ولذلك يقول الإمام -سلام الله عليه-: «واستصلح بقدرتك ما فسد منّي»[1]. وتتصدر قضايا الفساد العام، حالات التجاوز على أموال الأمة أو الشعب، حيث يقوم الحكام والمسؤولون بالاستيلاء على هذه الأموال بجميع الطرق المتوافرة لديهم، وجلها طرق وسبل غير مشروعة، كما أثبتت الوقائع الأخيرة التي نتجت عن ربيع الثورات العربية، والتي قادت في نهاية المطاف، بعض الحكام الفرديين، كحسني المخلوع، إلى قبضة العدالة ليظهر للجميع حجم الفساد المالي له ولأبنائه ومعاونيه وغيرهم.

(١) الصحيفة السجادية: دعاء (١٣) في التوبة.

ومع ذلك وكما يؤكد سماحة المرجع الشيرازي، لا يمكن الحكم على أخذ المال من الغير بالفساد القطعي ولا بوصفه بالذلة أو العزّة، إلا بعد معرفة الأسباب التي تكمن وراء مثل هذا الإجراء، إذ يؤكد سماحته في كتابه قائلاً: «هل يُعدّ أخذ المال من الغير مثلاً عزّة أم ذلّة؟ إنّ الملاك لكليهما يكمن في الموضع الذي يضع الإنسان فيه نفسه، فإمّا أن يكون مورد عزّة وقد يكون مورد ذلّة، فليس بوسعنا أن نحكم دوماً على عمل ما بأنّه مصداق للعزّة أو الذلّة ما لم نعرف نيّة المرء فيه. فإن كانت لله تعالى فهي عزّة، وإن كانت لغير الله كانت ذلّة».

هنا تتضح الصورة المعنية من حديث المرجع الشيرازي تماماً، فقد يصبح أخذ المال بالقوة -قوة القانون والشرع- حالة مساندة للحق ضد الباطل، ومؤازرة للمظلوم ضد الظالم، حيث يتم استرجاع ما تم التجاوز عليه من أموال بقوة السلطة، والشواهد الأخيرة تؤكد صحة مثل هذه الإجراءات السليمة تماماً، حيث يتعاون الآن عدد كبير من المنظمات والحكومات عالمياً على استرجاع مليارات الدولارات المسروقة وإرجاعها إلى الشعب المصري، أو التونسي، أو الليبي، وذلك عبر سلسلة من الإجراءات القانونية الصارمة في تجميد وحجز الأموال المنقولة وغير المنقولة لأولئك الحكام، وأبنائهم، وعوائلهم، ومساعديهم، وهكذا تدل هذه الإجراءات والعمليات الواسعة في استرجاع أموال الشعوب، على صحة أخذ المال بالقوة كإجراء يعيد الحق إلى نصابه.

وفي جميع الأحوال، يبقى الإنسان سواءاً كان فردا أو جماعة، حاكماً أو غيره، مسؤولاً أمام الإرادة الإلهية التي ستحكم بين الجميع يوم (لاينفع مال ولا بنون)، هناك حيث يقف الجميع سارقاً ومسروقاً، ظالماً ومظلوماً، حاكماً ومحكوماً، بين يديّ الله تعالى، ويُسأل السؤال الذي لابد أن يجيب عنه شاء ذلك أم أبى.

حيث يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا الصدد بوضوح لا يقبل الجدل: «لا بدّ أن تحضر جواباً حين يسألك الله سبحانه وتعالى في اليوم الآخر، ومعلوم ما هي تلك المسائل التي يجب أن تعنى بها والتي ستُسأل عنها غداً. فلن تُسأل: لماذا لم تأكل الأطيب أو تلبس الأنعم أو تركب الأسرع أو تختار ما هو أغلى للعيش وأجمل؟».

بل ستسأل لماذا فسدت نفسك ولم تحاول إصلاحها، باللجوء إلى الله تعالى بوسائل التقريب المعروفة والسهلة المنال أيضاً، لذا لابد لمن تضعه الأقدار الآن، في صدارة السلطة والحكم والقوة، سواء كان حاكماً لدولة أو مقاطعة أو مدينة أو مؤسسة أو دائرة صغيرة، أو سواها، أو فرداً بسيطاً، لابد لهم جميعاً من الإجابة عن السؤال الإلهي الحتمي، عن سبب التجاوز على حقوق الناس، وعن عدم إبداء العمل لإصلاح النفس، مع أن الفرصة قائمة وسهلة وفي متناول الجميع، وأولهم الأقوياء والحكام والوجهاء وغيرهم من أوائل القوم.

النقد الذاتي أساس التعلم

إن كثيراً من مطالب أصول الدين يشعر الفرد -بل حتى كثير من أهل العلم- بالحاجة إلى تعلمها سواء بالدراسة أو المطالعة أو المباحثة، وكذا الحال بالنسبة لكثير من الأحكام الشرعية. كما أننا بأمس الحاجة إلى تعبئة علمية لمعرفة كثير من الأحكام الشرعية وبالأخص تلك التي هي محل ابتلائنا، هكذا الأمر في مقام الهداية والإرشاد وتعليم الأحكام، ومواجهة أصحاب الديانات والمذاهب الباطلة والأفكار المنحرفة. هذا كله يعد من الواجبات العينية التي يجب على الفرد المسلم السعي لتعلمها.

هذا جزء مما أفاض به سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي -دام ظله- من الإرشادات التربوية

والأخلاقية الكثيرة والمفيدة، اشتمالها على كلمات ووصايا قيمة تخاطب الناس كافة، منهم بالدرجة الأولى رجال العلم والدين من حوزويين وجامعيين، أساتذة وطلاباً ومثقفين. أنهم حملة رسالة، هدفها النقد للذات والتغيير من أجل المجتمع المسلم، ليتعافى من أمراضه التي تفتك به.

يقول السيد المرجع: «لنخصص بعض أوقاتنا وبأقصى ما نستطيع لتعبئة أنفسنا بالعلم في كل مجال مشروع وفي مجال العلم الديني خاصة، ولنعلم أن موسم الدرس مناسبة جيدة، وإن التسهيل من الله تعالى. لننتهز كل فرصة ولا نضيع حتى دقيقة واحدة، لنحمل معنا الرسالة العملية التي قرأناها في أيام ماضية، رب كثير منا لا يتذكر كثيراً منها، أو رب أمور لم يعد كثير منا ملتفتا إليها، فإذا ما أتيحت له فرصة ولو بمقدار خمس دقائق، قرأ ولو صفحة واحدة منها، حتى إذا تكررت يكون قد تخلص مما كان عنده من جهل مركب في بعض المسائل، حيث كان يتصور أنه يعرفها مع أنه لم يكن يعرفها على الوجه الصحيح.

إذا كان لديكم اهتماماً بالعلم والمعرفة والثقافة، ليزدد، أن العلم والتغيير يعني النجاة من كل طارئ فإن الزمان قصير حقاً نسبة لتلك الأمور. أننا لا يمكننا أن نتهم كل من يريد إثبات شيء ما بالمِرَاء، لأن نيته قد تكون سليمة وهدفه قد يكون صحيحاً، لكن المهم أن نربي أنفسنا على تجنب المِرَاء والجدال الذي لا يراد به وجه الله تعالى. هذا الأمر لا يتطلب دراسات عميقة بل تكفيه

لحظات تأمل والتفات مع مراقبة النفس وضبطها.

إن الإنسان إذا تألم لا يمكنه أن يقول عبارات تكشف عن مدى تألمه، لكن إذا ربى نفسه تمكن أن لا يقولها بل يقول بدلاً منها: لا حول ولا قوة إلا بالله. لا شك أن التأوه بنفسه ليس مذموماً بل ورد في الأحاديث أن المريض إذا تأوه كتب له فيه ثواب، لكن لا شك أيضاً أن قول: (لا إله إلا الله) أكثر ثواباً، إذا لا ينبغي أن ننهى مريض من التأوه، لكن حبذا أن يربي نفسه بحيث يهلل الله ويحمده ويسبحه ويكبره إذا نزل به مرض أو بلاء».

نستطيع تركيز ملاحظات السيد صادق الشيرازي الهادفة إلى التغيير من خلال بعض النقاط منها:

١ - كيف نقوي العلاقة مع الله؟ لنحاول من الآن أن ندخل في عباداتنا روح التوجه والصدق شيئاً فشيئاً، ذلك بأن نلتفت إلى معاني العبادة، مثلاً: إذا وقفت بين يدي الله في الصلاة، وشرعت بقراءة سورة الفاتحة، فكر في معاني مفردات السورة واستحضر مفاهيمها، ولا تدع فكرك يهرب هنا وهناك، ولو حصل ذلك عد به سريعاً ولا تدعه يسرح، لا تيأس لو خاتلك ذهنك مرة أو مرتين بل حتى خمسين مرة، واحرص على أن ترجعه إلى حضيرته حتى يصبح حضور الذهن ملكة عندك، لتعي ما تقرأ وتتدبر في المعاني، فإذا قلت: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ استحضرت في ذهنك أن العبادة لله تعالى وحده وأنك في حال أدائها، وإذا قلت: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ جددت استعانتك به في كل أمورك، خاصة في عبادته. لا شك أن الإنسان

العربي يفهم معاني هذه المفردات أفضل من غيره، لأنها في لغته وعنده انطباع عنها، فكيف إذا كان من طلاب العلوم الدينية وقد قرأ كتب النحو والصرف والبلاغة. فهذا هو الأساس، قال تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾، والتوفيق من الله تعالى بمقدار تقوية الرابطة بين الإنسان وبين الله تعالى يأتي التوفيق بنفس النسبة.

٢- لماذا لا تروض نفسك؟ على الإنسان أن يحرص على تقوية علاقته مع المجتمع، وذلك عبر الالتزام بالأخلاق الإسلامية كالتواضع والبشر والكرم والعفو والرحمة وصلة الرحم. إن هذه القيم الأخلاقية معروفة للجميع لاسيما أهل العلم وهي موجودة في المجتمع المتدين بنسب متفاوتة، لكن المطلوب تعميقها وترسيخها والاستزادة منها.

حاول أن تخالف هواك في كل الأمور، فإن كنت لا ترغب في أمر ما رغم اعتقادك بصوابه، حاول أن تخضع له بكل رحابة صدر. إن كنت مختلفاً مع صديقك وواجداً عليه، حاول أن تصله بزيارة أو بإلقاء التحية عليه كلما لقيته. لا تبتئس إن لم يقابلك بالمثل ما دمت قد أديت ما عليك. فإن كنت تريد أن تصبح عالماً ومرشداً ينبغي أن تكون قدوة في الخلق من حلم وكظم الغيظ وما شابه، لا أن تثور بسرعة أو تتوتر أعصابك لأتفه الأسباب.

تصرف أنت بالنحو الصحيح واستفد من حياتك بصورة صحيحة ولا يهمك بعد ذلك إن كان قد استفاد الآخرون منك ومن تعاملك معهم أم لا، فإن الله تعالى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ**

﴿أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[١] .

نور العلم ليس حكراً على الأسر العلمية، بل قد يكون الشخص سليل عائلة علمية ولكن الله لا يمنحه هذا النور، وقد يقذف الله نور العلم في قلب ابن عطار أو مزارع أو بقال أو تاجر أو حمال. هذا يتضح لمن طالع تاريخ العلماء.

إذن، المطلوب علينا:

أ - أن نسعى لتحصيل ذلك النور إلى جانب تلقي الدروس ومطالعة الكتب والحضور عند الأساتذة، فإن المعلومات وحدها قد تجلب الغرور للإنسان، لنعرف أن الغرور ونور العلم لا يجتمعان، فلنحارب الغرور في أنفسنا ونتواضع لله سبحانه سائلين منه أن يجعل لنا لسان صدق في الآخرين.

ب- أن لا يستعظم الإنسان نفسه إذا ازداد علماً، بل عليه أن لا يجد الخطأ ويتهاون، واجبه التغيير والإصلاح و إلا فإن الله محاسبه قبل المجتمع.

ج - قد يكون الإنسان ذكياً ولا يدع أحداً من الناس يعلم أن فيه كبراً، لكنه هو يعلم ذلك من نفسه، فالله تعالى أعلم بما توسوس به نفوسنا، وكما ورد في وصية لقمان لابنه (الناقد بصير) وإنه سيكافأ كل منا على قدر إخلاصه الذي يثبت عند الله وليس الذي يدَّعيه الشخص أو يصوره للناس.

---

(١) سورة المائدة: آية (١٠٥).

رمزية الأخلاق والدور الرائد لبناء المجتمع

الأخـلاق تبدو لنـا مفردة مجـردة، تعتمد المعنـى قبل الفعل، ولكنهـا فـي واقع الحـال، تؤثر علـى الواقع المـادي، كمـا تؤثر فيه العلوم، لهذا فإن اكتسـاب الأخلاق والسعي إلى درجة الاكتمال في هـذا الجانب أصعب بكثير من اكتسـاب وفهم وإتقـان أحد العلوم، والسـبب يكمـن في أن الأخلاق تدخـل في بناء النفس، فيما تُسـهم العلـوم فـي بناء عقل الإنسـان، والفارق بين بناء النفـس وبناء العقل كبيـر من حيث الجهد المبـذول في هذا المجال، ومـن بداهة القول أن المجتمـع أكثـر حاجـة للإنسـان الخلـوق المتـزن الإنسـاني في أفكاره وسلوكه، من الإنسان الذي يتقن العلوم لكنه لا يتقن السلوك الإنساني.

السلطة بين العلم والأخلاق.

بمعنى أوضح قد يتصدر صاحب العلم أعلى المناصب، وربما يقود مجموعة أو دائرة وقد يصل الأمر إلى قيادته لدولة ما، بسبب قدراته العلمية التي اكتسبها بسعيه وجهده ومواهبه، ولكن ما فائدة كل ذلك إذا لم تكن الأخلاق هي المعيار الذي يستند عليه صاحب السلطة في إدارة سلطته وصلاحياته، ولذلك نلاحظ أن من يتخصص في علم ما، فإنه سيحقق ما يسعى إليه من تفوق وبسرعة تفوق كثيراً ما يسعى إليه الإنسان في مجال بناء النفس.

يقول سماحة المرجع الشيرازي، آية الله العظمى، السيد صادق الحسيني الشيرازي -دام ظله- في كتابه الثمين الموسوم بـ(العلم النافع) بهذا الخصوص: (إنّ مَن يتخصّص في علم واحد ويستفرغ كلَّ وسعه وجهده يبلغ أعلى الدرجات فيه ويتفوَّق غالباً على مَن كان ذلك العلم أحد اهتماماته، والأخلاق تحتاج إلى التفرّغ والجدّ والمثابرة من أجل بلوغ المراتب العالية فيها).

جميع العلوم تتطلب سعياً وجهداً حثيثاً لتحصيلها، ولكن الأخلاق تتطلب جهداً مضاعفاً، بل يحتاج الإنسان لكي يبني نفسه إلى إرادة حديدية تحيِّد رغائب النفس الكثيرة، وتعطل الغرائز الدافعة للإنسان نحو الوقوع في الزلل، لهذا غالباً ما يحتاج المجتمع إلى الرمزية الأخلاقية، وإلى النموذج الأخلاقي المؤثر، لأن الإنسان الخلوق سواء كان عالماً أو غيره، يترك تأثيره الأخلاقي بسرعة ووضوح في المحيط الاجتماعي الذي يتحرك فيه.

الحاجة إلى الرمز الأخلاقي.

غالباً ما ترى الأمم والشعوب والجماعات مهما تباين حجمها أو عددها، بحاجة إلى الرمز الأخلاقي الذي يتقدم الصفوف كنموذج مؤثر في الجميع، فكراً وسلوكاً، لهذا يؤكد سماحة المرجع الشيرازي في كتابه المذكور، على أن: «المستوى الذي يبلغه الأخلاقي -وطالب العلم الدينيّ خاصة- يؤثِّر في أداء دوره في المجتمع. فقوله وفعله وسيرته وتاريخه يشجِّع الناس نحو الفضائل الأخلاقيّة والاجتناب عن رذائلها إذا كان هو من أهل الفضيلة، ولكن إن كان عكس ذلك فسيدفع الآخرين إلى العكس أيضاً».

لهذا لا يصح أن تكون هناك مجافاة بين العلم والأخلاق، بمعنى أن الإنسان العالم والعارف ببواطن الأمور وسواها، ينبغي أن يحصّن نفسه مسبقاً بقاعدة أخلاقية تحميه من الإخفاق، والانحراف والضعف تحت ضغط الحاجات المادية الجسدية وسواها.

التزام الفضائل والعناية بها.

لذا لابد أن يدرّب الإنسان نفسه على انتهاج سبل الفضيلة، وكبح نوازع الرذيلة التي تدفع نحوها النفس طمعاً أو طلباً لتحقيق مآرب لا مشروعة، من هنا ينبغي على من يسعى إلى اكتساب العلم، أن يجعل من الفضيلة شعاراً في القول والفعل يطبقه في حياته العملية وسواها، لهذا يوجه سماحة المرجع الشيرازي قائلاً في هذا الصدد:

«إذاً على طالب العلم أن يولي الالتزام بالفضائل والأخلاق

عناية خاصّة لأنّه كلّما ارتفع مستواه فيهما ارتفع مستوى التزام الناس بهما بالتبع. وهذا أحد الفروق التي تميّز الأخلاق عن سائر العلوم والفنون كالفقه والأصول والبلاغة والفلسفة والخطابة وغيرها».

وكما ذكرنا أن هناك فوارق عديدة بين الأخلاق والعلوم، ولكن يمكن أن يشكل الطرفان رديفين بعضهما لبعض، بدلاً من حالات التقاطع التي قد تحدث أحياناً، بين العلم والأخلاق، وهو ما يعزوه البعض إلى حدوث التقاطع سياسياً بين النهج العلماني والديني، ولكن في ظل الإسلام لا تقاطع بين العلم والأخلاق، ولا تقاطع بين السياسة وبين الدين، أما الفارق فهو يكمن في الصعوبة التي تتجلى باكتساب الأخلاق، قياساً باكتساب العلم، يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا المجال: «الفرق الآخر بين الأخلاق والعلوم الأخرى يكمن في صعوبته قياساً بها، فالرقيّ في الأخلاق أصعب منه في العلوم الأخرى».

وفي المسار نفسه يضيف سماحته قائلاً: «إنّ الأخلاق أصعب من الفقه لأنّ الأخلاق تعني تهذيب النفس وبناءها، وقد قال بعض أهل الخبرة: من الصعب أن يصبح المرء مجتهداً ولكن من الأصعب أن يصير إنساناً».

مقارعة الذات.

لذا يتطلب الأمر أن يرتقي الإنسان بنفسه، وأن ينحو صوب تهذيب الذات وتشذيبها من المساوئ أياً كان نوعها أو مصدرها،

وطالما كان الصراع بين الإنسان ونفسه، فإنه صراع ينطوي على صعوبات جمة، إذ يؤكد سماحة المرجع الشيرازي قائلاً بهذا الصدد: (إنّ الارتقاء في الأخلاق والفضائل أصعب من الاجتهاد في الفقه، وإنّ ثمرته ونتيجته أبعد منالاً وأعسر حصولاً من الفقه).

إن رمزية الأخلاق، لا تعني أن يتصنع الإنسان سلوكه مع الآخرين، بل لابد أن تكون الأخلاق متأصلة في ذاته ونابعة منها، أما التصنّع فهو مكشوف ولا يصمد طويلاً، حيث ينكشف الوجه الحقيقي للإنسان، بعيداً عن غطاء التصنّع، ولهذا يؤكد سماحة المرجع الشيرازي على أن: «المرء لا يلمس نتيجة سعيه إلاّ عندما يصبح ذا قلب سليم وتصبح الأخلاق والفضائل ملكات لديه، عندها يشعر بلذّة الأخلاق والوصول إلى مراتبها العالية، وعندها يعرف قيمة ترويض النفس ومخالفة الشهوات».

هل تصبح الأخلاق مَلَكَة؟

وبهذا يمكن للأخلاق أن تصبح ملكة تتأصل في ذات الإنسان، ولكن الأمر يتطلب سعياً حثيثاً ومتواصلاً، لاكتساب الفضائل كسلوك أصيل يطبع نفسية الإنسان وتوجهاته في الأفعال والأقوال معاً، إذ يقول سماحة المرجع الشيرازي: «لا تصبح الأخلاق ملَكة عند الشخص إلاّ بعد أن يحارب نفسه ويخالفها، ويستمرّ في مخالفتها حتى تنمو عنده ملَكة حبّ الخير في كلّ أبعاده. فإذا حصل على الملَكة شعر باللذّة وبدأ يلمس نتيجة أتعابه في مجال الأخلاق والفضائل. وهذا لا يحصل بصورة سريعة بل

هو بحاجة إلى وقت يستغرق عمر الفرد، لذلك أصبح الارتقاء في مدارج الأخلاق صعباً».

وفي كل الأحوال يحتاج المجتمع إلى الرمزية الأخلاقية، إذ يكون بمقدورها تأصيل السلوك الإنساني السليم وتطويره، وتعميمه على الأفراد والجماعات، لاسيما النخب المؤثرة كالعلماء والسياسيين والمثقفين وغيرهم، لكي تتكون للمجتمع قاعدة أخلاقية متينة، تصونه من التردي والتراجع والنكوص.

الأخلاق الجوهرية تعني صناعة الإنسان

الأخـلاق عنصر جوهري فـي بناء الشـخصية، ولا ينتمي إلى المظاهـر القشـرية، ولهذا تبقـى الأخلاق ناقصة، إذا لـم تتحول إلى فعل قائم، وشـاخص في الميدان الذي يتحرك وينشـط فيه الإنسان، من هنا تتسم الأخلاق، وقضية تحصيلها، والتميّز بها بالتأني، بسبب العمق السحيق الذي يميزها، وهذا القول أو الرأي، يدعم اصطفاف الأخلاق إلى الجوهر الإنسـاني قبل شـكله. يقول سـماحة المرجع الدينـي، آيـة اللـه العظمى السـيد صادق الحسـيني الشـيرازي -دام ظلـه- بهذا الصدد، في كتاب (من عبق المرجعية): «عمق المسـائل الأخلاقيـة وعدم الوصول السـريع إلـى نتائجها يجعـل المرء وكأنه غارق في المجهول».

وبسبب صعوبة تحقيق التكامل الأخلاقي في شخصية الإنسان، فإنه قد يصل إلى حالة من اليأس، الذي يقوده إلى التراجع عن دوره الإنساني في الحياة، فالأخلاق منظومة ترفع الإنسان وتسمو بنفسه، إلى ما فوق الإنسان المتعارف عليه في المجتمع، حيث يتنزّه الإنسان المتسم بالأخلاق، عن الصغائر، والغرائز، والنوازع التي غالباً ما تحاول أن تحط من قيمة الإنسان، كقيمة فكرية، سلوكية، عُلياً بين الكائنات، التي تتخذ من المعمورة مأوى لها، وربما لهذا السبب تحديداً، يؤكد سماحة المرجع الشيرازي، في الكتاب نفسه قائلاً: «لنخطط لأرواحنا قبل أن نخطط لبطوننا وأيدينا وبيوتنا وأهلينا».

فسماحته يؤمن ويحث الآخرين على أهمية الغذاء الروحي قبل الجسدي، كون الغذاء الروحي يسمو بالروح إلى مراتب عالية، تجعل من صاحبها، أو حاملها، نموذجاً مشعّاً على الآخرين، بأخلاقه التي تتمخض عن سلوكيات، وأفكار، تصنع الفرد والمجتمع النموذجي، ولهذا يركز سماحة المرجع الشيرازي على هذا الجانب، حين يؤكد مرة أخرى، وأخرى، قائلاً: «علينا بعلم الأخلاق، فليست أخلاق الإسلام وآدابه كلها مستحبات ومكروهات فقط، بل إن فيها الواجبات والمحرمات أيضاً».

وهذا يعني بأن الإنسان المسلم، لكي يُمنَح أحقية الانتماء للإسلام، شكلاً وجوهراً، عليه أن يهتم، ويتواصل، ويتعاطى، مع علم الأخلاق، ليس في جانبه الاعتباري، أو العلمي فحسب، بل

لابـد أن يتحول هذا العلـم والمحتوى، إلى تطبيق عملي شـاخص، في ميـدان العلاقات الإنسـانية الواسـعة، والمتعـددة الجوانب، مع عمـوم أفراد المجتمـع، وجماعاته المختلفة، لذلـك لاينبغي قط أن ننظـر أو نتعامـل مـع الأخـلاق، على أنهـا جانب شـكلي، أو مكمل (فحسب) لشخصية الإنسان، بل الأخلاق هي جوهر الإنسان، وهي التي تصنعه، وينبّه سماحة المرجع الشيرازي الجميع على أن: «علم الأخـلاق أصعب من الفقه ولا ينبغي لنا أن نستسـهله، لأن الأخلاق تعني صناعة الإنسان».

فالأخـلاق بهذا المعنى، تقود الإنسـان نحـو درجات الكمال رويداً، لاسـيما حب الخير للآخرين، في عموم ميادين الحياة، حتى في حالات المنافسـة، والتسـارع في تحصيل المكاسب، وما شابه، فميزة الإنسـان الذي تصنعه الأخلاق، هو تفضيله للآخر على نفسه، أو فـي الأقـل، التسـاوي في درجـة الحب، بيـن ذاتـه والآخرين، لا تفضيلها عليهم، وهذه هي القيمة العظمى، التي تنتجها الأخلاق في شخصية الإنسان، إذ يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا الصدد في الكتاب نفسـه: «إذا حصل الإنسان على ملكة حب الخير في كل أبعـاده، شـعر باللذة، وبـدأ يلمس نتيجـة أتعابه في مجـال الأخلاق والفضائل».

ولكـن هل من السـهل على الإنسـان، بلوغ درجـة الأخلاق، التـي تسـهم ببنائه علـى الوجه الأمثـل؟ إن بلوغ هـذه المرتبة، تعني صراعاً مريراً، بين الإنسـان ونفسـه، وتركيبتها الغامضة، المتناقضة،

وغرائزه التي تدفع به نحو الاتجاه المضاد لإنسانيته، في حالة تجاوز الضوابط، والمحددات التي لا تعترف بها الغرائز في الغالب، لهذا تكون الأخلاق هي الكابح الأكبر، والأهم، ليس للغرائز الجانحة، نحو الشر والخطأ، فحسب، بل في عموم السلوكيات، التي تحاول أن تحط من قيمة البشر.

لهذا السبب ولأسباب أخرى، كان ولا يزال يصعب على الإنسان، بلوغ مرتبة الأخلاق الجوهرية، التي تقوده نحو السؤدد، والسمو، والرفعة، التي تضعه إلى جانب الشخصيات العظيمة، التي صنعتها الأخلاق، وهي بدورها صنعت أممها وشعوبها الناجحة، ولذلك يقول سماحة المرجع الشيرازي في الكتاب نفسه: «أصبح الارتقاء في مدارج الأخلاق صعباً، بل أصعب من الاجتهاد، وخير دليل على ذلك الواقع الخارجي فإن عدد من بلغوا مرتبة الإنسان الكامل أندر من عدد المجتهدين».

العلم والأخلاق ركيزتان أساسيتان لتطور الإنسان

ما كان للإنسان أن يرتقي على الحيوان في طريقة العيش، لولا قدرة الإنسان على تهذيب نفسه وكبح غرائزه وترويض رغائبه، فتحولت نزعات التوحش لديه إلى سلوك مهذَّب تحت ضغط المعرفة والأخلاق التي تعلمّها الإنسان من الأديان والأفكار القويمة التي نشرها المصلحون بين مجاميع البشر في هذه الأمة أو تلك، ولعل الحديث النبوي الشريف: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» يعطينا تصوّراً واضحاً لمكانة الأخلاق في التحكم بالنفوس وتشذيب النزعات السلبية التي تعج بها النفس البشرية، وهذا الأمر يؤكد الترابط بين العلم والأخلاق، فكلما كان الإنسان أكثر علماً ومعرفة، كلما كان أقدر من غيره على كسب الخُلق الرفيع.

لهـذا لا يـزال العلمـاء المعنيـون والباحثـون في حاضر ومسـتقبل البشرية، يؤكدون على أهمية (العقل الأخلاقي) وحاجة الإنسانية القصوى له، لكي يتمكن الإنسان من تحسين وتطوير حياته حاضراً ومستقبلاً. ولهذا السـبب أيضاً يؤكد سـماحة المرجع الديني، آية الله العظمى السيد صادق الحسـيني الشـيرازي -دام ظله- في كتابه القيّم الموسوم بـ (العلم النافع) بهـذا الخصـوص قائلاً: «علينـا بعلم الأخلاق، فليسـت أخلاق الإسـلام وآدابـه كلّهـا لا اقتضائيّـة -حسـب الاصطـلاح العلمـي- أي مسـتحبّات ومكروهات، بل إنّ فيها الواجبات والمحرّمات أيضاً».

وهكـذا فإن الأخـلاق لا تُعنى بالمسـتحَّب والمكروه فحسـب، إنمـا تتعـدى ذلك، إلى نشـر ثقافة احتـرام الواجب وتأديتـه على أفضل وجـه، فيما تؤكد أيضاً بقوة على نبذ المحرّم وتجنبه، بل صدّه ومحاربته مـا أمكـن ذلك، لكي تصفو النفـوس وتبلغ مرتبة عالية مـن التحضّر في التعامـل مـع الـذات أو الآخر في آن واحـد، ويتم ذلك بمسـاعدة العلم والمعرفة، لأن الأخلاق يمكن أن تؤدي دوراً أفضل بوجود العلم، يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا الصدد بكتابه نفسه: «إنّ الكرم خصلة محمودة، وكذا السخاء والإنفاق وإقراء الضيف، فكلّ ذلك عمل محبّب ومقبول، ولكن إلى حيث لا يؤدّي إلى ترك واجب أو ارتكاب محرّم».

إذن فالعلـم والمعرفة تحمي الأخلاق من الزلل غير المقصود أو سواه، وتصون الإنسان من الانزلاق في مهاوي الحرام من دون أن يقصد ذلك، إنما السـبب هو الجهل بجوهر الأشـياء وقلة العلم بها، لهذا لابد أن يتسلح الإنسان بسلاح العلم والمعرفة، لاسيما العلماء

والمصلحون والمسؤولون على تقويم المجتمع ونشر الفضيلة والعلم بين شرائحه ومكوناته، ومع أن تحصيل العلم يتم اكتسابه بجهد فردي بالدرجة الأولى، إلا أن العلماء لابد أن يتحملوا دورهم في هذا المجال، على أن لا يغيب جهد الفرد وسعيه في تحصيل العلم كي يطور حياته نحو الأفضل.

يقول سماحة المرجع الشيرازي: «إنّ المطلوب هو العلم، فإنّ الإنسان لا يدري بما سيُبتلى وكيف ينبغي له أن يتصرّف، وكيف يتحدّث لئلاّ يكون من الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿**وَبَدَا لَهُم مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ فيعمل ويتصوّر أعماله حسنات، ثمّ ينكشف له بعد ذلك أنّها كلّها كانت سيّئات، لذا فأهل العلم أَولى بالانتباه إلى هذا الأمر الخطير».

لذلك لابد أن يتعلم المسلم كيفية توظيف الأخلاق بالطرائق السليمة التي لا تقوده إلى المعصية من حيث لا يقصد أو لا يعلم، وهذا تحديداً دور العلم، حيث يمكن للإنسان أن يتجنب المعاصي وارتكاب الذنوب، إذا كان عارفاً بكيفية التوظيف الصحيح للأخلاق، وعدم الخلط بين المستحب والمكروه من جهة، وبين الواجب والمحرَّم من جهة أخرى، وهنا ينبّه سماحة المرجع الشيرازي إلى أهمية الفصل بين الأخلاق كعلم، وبين كونها واجب لا ينبغي إهماله أو تجاوزه، حيث يقول سماحته بهذا الخصوص في الكتاب المذكور نفسه: «لا يتصوّر أحد أنّ الأخلاق الإسلامية كلّها علوم لااقتضائية، فكثير مما يعبّر عنه اصطلاحاً بالأخلاق إنّما

هو من الواجبات، وضدّه من المحرّمات، فإنّ التكبّر والعُجب مثلاً ليسا من المكروهات -بالمعنى الأخصّ- بل هما من المحرّمات، وكذلك المِراء -وهو الجدال بالباطل- وغير ذلك ممّا يوصف بالأخلاق الذميمة».

لذا لابد للإنسان أن يتسلح بالمناهج والمضامين العلمية السليمة التي تحميه من السقوط في فخ الجهل بهذا الأمر أو ذاك، حتى لو كان دافعه أخلاقياً، لأن الأخلاق من دون علم كالقوس بلا نبل، أو كالنهر بلا ماء، فكلاهما يكمّل الآخر، إذ من الصعوبة أن توضع الأخلاق في المواضع المناسبة لها من دون علم مسبق بالواجب والمحرّم وسواهما من أمور ينبغي على الإنسان أن يكون عارفاً وعالماً بها.

وبهذا يمثّل العلم الوقاية الأهم من السقوط في براثن الجهل، وبالتالي تجنب الوقوع في الأخطاء حتى لو كان الأمر ليس مقصوداً، فالمهم بالدرجة الأولى أن يحاول الإنسان تجنّب الوقوع بالخطأ ما أمكن له ذلك، وهذا الهدف الصعب والمهم جداً، لا يتحقق من دون مساعدة العلم الذي يجعل الأمور تسير في مساراتها الصحيحة ويجنب الإنسان الزلل، ويدفعه نحو الاتجاه الصحيح للتطور.

يقول سماحة المرجع الشيرازي حول هذا الموضوع من باب النصيحة والإرشاد: «إعلموا أنّ العلم يعني النجاة من كلّ طارئ، فإنّ الزمان قصير حقّاً نسبة لتلك الأمور. ولو أنّ أحدنا يعمّر مئة سنة، فهو قليل تجاه ما يجب عليه، فكيف وأعمارنا أقصر من ذلك؟».

طريق طلب العلم وتجاوز المعوقات

يتطلب طريق العلم إرادة فاعلة وقوية تخطط للأهداف التي تبتغي الوصول إليها ثم تسعى فعلياً لتحقيقها، وهذا الأمر يتطلب السير المتواصل في طريق العلم الطويل، وهو طريق محفوف بالكثير من المعوقات والإشكالات التي تحاول أن تمنع الإنسان من الوصول إلى غايته وتناوئ إرادته وتضعفها لكي يحيد عن هذا الطريق المشوب بكثير من الصعوبات الجدية.

ولكن تبقى الإرادات القوية صاحبة السبق في هذا المجال، فقد قيل فيما مضى (من طلب العلا سهر الليالي) ومن أراد العلم عليه أن يتعب ويصرّ على الوصول إلى أهدافه وغاياته برغم الصعوبات الجمة التي ستواجهه حتماً وهو يسعى إلى تحصيل العلم، ولذا

نجـد أن بعض طـلاب العلم يمكنه قطع المشـوار الصعب والطويل والشاق وصولاً إلى تحقيق الهدف المطلوب وثمة من لا يتمكن من مواصلة الطريق نتيجة لتردد في التصميم والإرادة التي تشـكل عاملاً حاسماً في هذا المجال.

وقـد ناقـش سـماحة المرجـع الديني آيـة الله العظمى السـيد صادق الحسـيني الشـيرازي -دام ظلـه- في كتابه الثمين الموسـوم بـ(العلـم النافع) هذا الموضـوع الهام وقال في هذا الصدد: «نلاحظ في الواقع الخارجي أنّ نسـبة كبيرة ممّن بدأوا طريق العلم والدراسة بإصرار وصدق وإيمان لم يسـتمروا حتى النهاية، بينما النسـبة الأقلّ هم الذين اسـتطاعوا التغلّب على المشاكل الكثيرة التي تحفُّ طريق طلب العلم».

ولكن مع تطور الحياة وتعدد منافذها وتوجهاتها لابد أن تتعدد المشـكلات التي تواجه طلاب العلم وتتضاعف بسبب تعقيد الحياة بصـورة مسـتمرة ومتزايدة، وكمـا ذكر سـماحة المرجع الشـيرازي فـي كتابه قائلاً في هذا المجـال: (إذا كانت المشـاكل والعقبات في طريـق طلب العلم كثيرة فيما مضـى، فإنّها اليوم أكثر). ولكن ما هي طبيعة المشـكلات والمصاعب التي يمكن أن يواجهها طلاب العلم فـي العصـر الراهن وما هـي الاختلافات بين صعوبات ومشـكلات الأمس عن اليوم؟ ويجيبنا سـماحة المرجع الشيرازي قائلاً في كتابه نفسه: إن أكبر مشكلة في السابق كانت تتلخّص بعدم وجود الكتاب، وكون الكتب مخطوطة، فكان طالب العلم الذي يريد أن يقتني كتاباً

كالشرائع -مثلاً- أمام أحد خيارات:

* إمّا أن يستعير نسخة خطّية أو مستنسخة ثم يقوم بنسخها من أوّل الكتاب إلى آخره.
* أو أن يدفع ثمناً باهظاً لشراء نسخة من الكتاب. وهذا لم يكن ميسوراً لأكثر الطلَّاب، فلا نبالغ إذا قلنا: إنّ تسعين بالمئة منهم لم يكونوا قادرين على توفير هذا الثمن.
* أو أن يجد مَن يتبرّع له بثمن الكتاب. وهذا أصعب الخيارات وأندرها تحقّقاً.

أمّا اليوم فبإمكان غالب طلاّب العلوم الدينية شراء نسخة من الكتاب الذي يريدون دراسته. إذاً يمكن القول: إنّ مشكلة صعوبة الحصول على الكتاب لم تعد اليوم موجودة).

ولعل هذه المشكلة التي كانت تواجه طلاب الأمس قد تضاءلت كثيراً، وبهذا فإن جانباً مهماً من جانب المعرقلات التي يمكن أن تواجه طلبة العلم قد حُلَّت، بمعنى أن الكتب والمراجع أصبحت متوافرة بين أيدي الطلاب بصورة جيدة وبما لا يشكل إعاقة تُذكر أمام سعيهم لتحصيل العلم والسعي في هذا الطريق، ويؤكد سماحة المرجع الشيرازي أن كثيراً من مشاكل طلاب الماضي لم تعد تواجه طلاب الحاضر إذ ذكر سماحته في هذا المجال قائلاً: «من المشاكل التي كانت موجودة في السابق، وقد قلّت اليوم إلى درجة كبيرة، الحصول على مدرّس، فقد زالت هذه الصعوبة اليوم إلى حدٍّ كبير وخاصّة في الحواضر العلمية التي نعيش فيها».

وهنا لابد من القول أن أهم دعامتين لتحصيل العلم قد توافرت لطلابه وهما (الكتاب والمدرس) وهذا أمر لم يكن متوافراً لطلاب الماضي على هذا النحو واليسر الواضح، ولكن في مقابل هذا الأمر ثمة صعوبات ظهرت في عالم اليوم وأصبحت تتزايد وتواجه طلاب العلم كما يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا الصدد: (هناك مشاكل استجدّت ولم تكن في السابق، ومنها كثرة العطل، فلم تكن بهذه الكثرة، ولم تتجاوز -على ما أتذكّر- غير الخميس والجمعة، والحالات الأربع من كل عام وهي شهر رمضان كلّه، وثلاثة عشر يوماً الأولى من شهر محرّم، ووفيّات ومواليد المعصومين -عليهم الصلاة والسلام- والأعياد الثلاثة: الغدير والفطر والأضحى، ولم تكن عندنا عطلة صيفية ولا عطلة أخرى غيرها.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ بعض وفيّات ومواليد المعصومين كانت تقع في أيّام الخميس أو الجمع ما عدا تلك التي تقع في أيّام شهر رمضان. إذاً، فإنّ مجموع الأيام التي كنّا نعطّل فيها الدرس لم تزد على الشهرين في السنة، ومع كلّ ذلك لم نصل إلى شيء، مع أنّنا كنا نستغلّ حتى أيّام العطل في تلقّي دروسٍ خارج المنهج الحوزوي المقرّر كدروس الأخلاق والتفسير والعقائد والرياضيات والخطابة والكتابة، ولم تكن حتى ليالي الجمع وأيّامها مستثناة من ذلك).

ومع الحجم الكبير للجهد المبذول من قبل طلاب الأمس لتحصيل العلم بصورة جيدة، ومنها محاولة تقليل أيام العطل إلى أدنى حد بالإضافة إلى الدراسة في أيام العطل، إلا أن المطاولة لم

تكن واحدة في قطع طريق العلم الشاق والطويل في آن، وهنا يشير سماحة المرجع الشيرازي في كتابه نفسه إلى هذه النقطة فيقول: «لقد عبّأنا كلّ طاقاتنا ولم يصل أغلبنا إلى الغاية المرجوّة، فكيف بالوضع اليوم، وقد نقل لي أحد المدرّسين أنّه أحصى كلّ الأيام التي درّس فيها خلال إحدى السنوات الأخيرة فوجدها لا تزيد على التسعين!».

ولكن يتساءل سماحة المرجع الشيرازي أن طالب العلم إذا أخفق في تحقيق حلمه وهدفه هل هذا يشكل نهاية المطاف؟ وهل ينتهي الأمر بالطالب إلى الرضوخ للفشل واليأس وما إلى ذلك من نتائج غير جيدة؟ هنا يجيبنا سماحته قائلا: «إذا كانت المشاكل في طريق طالب العلم كثيرة، وكان طالب العلم لا يريد صرف عمره هكذا عبثاً ثم يكتشف بعد مرور ثلاثين سنة أو ربّما خمسين سنة أنّه لم يصل إلى شيء ولم يحصل على نتيجة، فما هو الحلّ العملي للتغلّب على هذه الصعاب؟ إن الحلّ الجذريّ يتمثّل بالآية الكريمة: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

والمقصود بذكر الله تعالى في الآية -كما قال المفسّرون- الذكر اللساني والقلبي معاً. والمقصود بالذكر القلبي هو التوجّه إلى الله تعالى، فإنّ الممارسات العبادية التي نؤدّيها لله تعالى ينبغي أن لا تكون طقوساً جامدة، لا روح فيها، بل علينا أن نتفاعل معها، ونشعر من خلالها أنّنا نقف بين يدي الله تعالى ونؤدّي حقّ العبوديّة على أتمّ وجه.

أهمية العلاج الديني في حياتنا المعاصرة

علينا أن نعرّف الشباب والمراهقين بنبي الإسلام محمد ﷺ وأهل بيته -سلام الله عليهم- بالنحو والكيفية التي عرفوا بها أنفسهم وبالطريقة نفسها التي عرف بها القرآن الكريم شخصية رسول الله ﷺ تلك الشخصية الموزونة التي خلت من الأمراض النفسية والعقد، كان خلقه القرآن الكريم.

لذلك يؤكد سماحة المرجع الديني السيد صادق الحسيني الشيرازي -دام ظله- إن في القرآن آيات بينات تهدي الشباب وكل الفئات العمرية التي هي عرضة إلى الإنحراف، ففي القرآن علاج للكثير من تلك العقد النفسية، التي يجب أن نعالج أنفسنا بها وكذلك المحيطين بنا.

من الضروري اطلاع الجمهور على ذلك، لغرض صيانتهم

من الشـرر والمفاسد، لأن روح الشباب والفتى رقيقة ربما تميل إلى تجاذبـات كثيرة، مما يفقد المرء صوابـه وصعوبة إعادته إلى الطريق السـوي، لذلك قراءة القرآن الكريم وبالذات سـور الشـفاء النفسي، خير احتراز في هذا الوقت الصعب.

مـن الثابت أن الإيمـان والالتزام بالدين يوفر للفرد الإحسـاس بالأمـان والطمأنينـة، يحصنه ضـد الرغبات والأهـواء والانحرافات، والأفكار الشاذة. إن معظم القضايا التي يعاني منها الإنسان هي بسبب الأزمـة الأخلاقيـة والبعـد عـن تعاليـم الديـن. إن اللجوء إلـى الدين والعبادات يساهم في الحد من الكثير من مشاكل الحياة، كما أن الدين له أثره الواضح في النمو العقلي والنمو النفسي والأخلاق والسلوك.

التعاليـم الدينيـة الصحيحـة عندمـا تتغلغـل فـي النفـس وفي الفكر، تدفع الفرد إلى السلوك الإيجابي في الحياة، يمكن النظر إلى الدين على أنه أحد أبعاد شـخصية الفرد، ويتناول جميع أبعاد حياته، والديـن يعتبـر قوة دافعـة. الفرد فـي بلوغه ومراهقتـه يتعرض ليقظة دينيـة عامة حيث يميل إلى التأمل، الانشـغال بصفات الله عز وجل، كمـا يميل إلى ممارسـة النشـاط الدينـي وذلك إذا توفرت للإنسـان التنشئة الأسرية الجيدة والقدوة الدينية الحسنة.

إن نسـبة مـن المراهقيـن والشـباب يكونون من المتحمسـين دينياً، ويندفعون نحو جماعات البر والإحسان، أو الزهد والتصوف، أو بعض الحركات الهدامة التي تعمل باسـم الدين. قد يلجأ البعض إلى الدين كوسـيلة للتحكم بالدافع الجنسـي، حيث يشـعر المراهق

بالذنب عند أي ممارسة أو فعل غير شرعي، فيدعو الله طلباً للمغفرة والتوبة، وإذا ما تم عن طريق العلاج النفسي الديني استغلال هذا الاستعداد للدين لدى الشباب، وتم توجيههم نحو الأخلاق الحميدة، عن قناعة ورضى وفهم، فإن هذا كاف لأن يبعد الفرد عن مشاكله، ويُحسِّن من نظرته إلى نفسه، ويزيد من إرادته وطموحه.

إن الأخلاق مستمدة من الدين، هي تعمل على تنظيم سلوك الفرد والجماعة، كما تعمل على تنمية الضمير الفردي والجماعي، وجعل السلوك صحيحاً، سوياً، محبباً، مفيداً، لهذا فإن مفاهيم الدين والعمل بها تعمل على إصلاح السلوك، لأن للعامل الديني، تأثيراً قوياً في النفس والفكر والسلوك. القرآن الكريم، حافل بالآيات الكريمة التي تعتبر منهجاً للهداية، للاستقامة بالسلوك، ومنهجاً في الوقاية، في العلاج وغير ذلك. يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾(١). ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(٢). ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**﴾(٣). ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾(٤). ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ**﴾(٥).

الإنسان المؤمن هو الذي يكون صادقاً مع نفسه ومع غيره، مطمئناً، واثقاً، أميناً، مخلصاً خلوقاً، حساساً، لا يكذب، ولا يخون،

(١) سورة الكهف: الآية (١٣).
(٢) سورة الإسراء: الآية (٨٢).
(٣) سورة السجدة: الآية (٤٤).
(٤) سورة الشعراء: الآية (٨٠).
(٥) سورة يونس: الآية (٥٧).

ولا يسرق، ولا يقلق، ولا يخاف، يقول الحق، يفعل الحق. لذلك ليس غريباً أن يكون ضعف الإيمان، من أبرز عوامل حدوث مشكلات الأفراد مثل الأوهام، الانتحار، الانحراف في السلوك، واستغلال الآخرين والإساءة إلى الأطفال، وارتكاب الجرائم، الفشل في الحياة، حتى الأمراض النفسية والعقلية والأمراض العضوية تتفاعل وتتأثر بالعامل الديني لدى الإنسان. لقد جاء في القرآن الكريم توجيهات كثيرة لإصلاح سلوكنا، وأخلاقنا، وأمراضنا.

يقول الله تعالى في وصية سيدنا لقمان لابنه وهو يرشده وينصحه حتى يستقيم أمره في الحياة: ﴿**وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾[1].

(١) سورة لقمان: الآية (١٣-١٩).

إن هذه الآيات الكريمة تُرينا أصول التربية والتوجيه والإرشاد والعلاج، كما تُرينا ضرورة اهتمام الأبوين بأطفالهما من حيث تعليمهم السلوك الديني الصحيح، منذ صغرهم، حتى إذا خرجوا إلى الحياة أمكنهم السيطرة على نزواتهم، ودوافعهم.

الكثير من الآيات القرآنية لها أثر إيجابي في شفاء الأمراض النفسية والعضوية والاجتماعية، والانحرافات السلوكية، حيث توجب محاسبة النفس، التأمل الروحي، طلب التوبة، مما يجعل الإنسان يحافظ على توازنه واستقراره، كما يحافظ على طاقته وقدراته. يجب على الفرد المسلم فهم سبب مشكلته أو فهم سبب انحرافه أو فشله، وفهم الأمور التي تترتب على ذلك. بهذا تنمو لدى الفرد القدرة على التمييز بين السلوك السوي، والسلوك غير السوي، بعد ذلك تنمو الذات، يقول الله تعالى: ﴿**بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾[1].

بعدها، يتمكن الفرد أن يكتسب اتجاهات فكرية وقيماً سليمة، وأن يصبح قادراً على فهم مشاكله ومواجهتها، على ضبط نفسه مع الإحساس بالرضا والسعادة.

عندما تكون للفرد النية الخيرة والحسنة في تقويم نفسه، تدفعه نفسه نحو فعل الخيرات والكف عن الشرور، تجعله يشعر بخيرية الذات، وهذه من أسباب التوافق في الحياة، ومن أسباب العطاء والإنجاز والنجاح.

(١) سورة القيامة: الآية (١٤).

سعادة الإنسان والتوافق مع الذات

من طبائع الإنسان المعروفة والمتفق عليها بين المتخصصين وعامة الناس، أنه غالباً ما يبحث عن سعادته طالما كان موجوداً على قيد الحياة، بل ربما تكون من أهم أولويات الإنسان هو السعي والوصول إلى درجة السعادة المبتغاة من لدن الجميع، في وقت لم يقف أحد ما أو تشريع أو عرف أو قانون ضد هذه الرغبة الإنسانية، بل هي متاحة ومباحة للجميع ولكن وفقاً لضوابط متفق عليها سواء في التشريعات السماوية أو الوضعية أو حتى الأعراف والتقاليد والنواميس البشرية وما شاكل ذلك.

غير أن الطريق إلى السعادة لم يكن سهلاً أمام الإنسان، فهو مرتبط بمقومات وعوامل عدة ينبغي التعامل معها بحنكة والتفوق

على مصاعبها كي يصل الإنسان إلى حالة التوافق القصوى مع الذات، وهذا يعني قبول المرء بما يتعرض له أثناء حياته من مصدات وعوائق متعددة الأشكال والمصادر، ومنها المصاعب القدرية التي تفوق قدرة الإنسان على التحكم بها مثل الموت أو التعرض إلى حوادث مهلكة ليس له القدرة على تلافيها أو مواجهتها كونها خارجة عن قدرته البشرية، لذلك يقول سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي في كتابه القيّم الموسوم بـ (العلم النافع): «لا ينبغي أن نعبّس أو تضيق صدورنا أو نحزن بسبب تموّجات الحياة، بل يجب أن نعمل بوظيفتنا في كلّ الأحوال -سواء الصعبة أو السهلة- وأن نعتبر ذلك امتحاناً إلهياً لنا».

بمعنى أن التوافق مع النفس مطلوب في كل الأحوال، غير إن هذا الأمر ليس من البساطة بحيث يكون متاحاً أمام الجميع، لأن المسألة تتعلق بمدى قوة إيمان الإنسان ودرجة قدرته على قبول الوضع الذي يعيشه مهما كانت درجة صعوبته، كونه يمر في حالة امتحان متواصلة طالما كان على قيد الحياة، فالدنيا كما هو متفق عليه بين الأديان السماوية كافة، هي قاعة امتحان كبيرة، تتطلب من الإنسان الذي يأتي هذه الحياة أن ينجح فيها، ولعل نجاحه يتعلق تماماً بدرجة إيمانه وتحمله لكل ما يتعرض له من حوادث منغصة لحياته، فالأمر ببساطة يتطلب الصبر المتأتي من حالة التوافق والقبول بما قسمه الله تعالى لهذا الإنسان أو ذاك، وفي هذا الصدد يقول المرجع الشيرازي في كتابه نفسه: أن «كلّ الذين وفدوا إلى هذه الحياة إنّما وفدوا من أجل الامتحان، لا فرق في ذلك بين الشيخ

والشابّ والرجل والمرأة والغنيّ والفقير والعالم والجاهل. قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾»[١].

ومع ذلك هناك مساحة واسعة متاحة للفعل والتفكير الإنساني والإرادة الخلاقة التي لا تستسلم للعثرات أو المصائب التي تحل بها، فصلابة الإنسان مطلوبة في كل الأحوال طالما أنه يعيش هذه الحياة التي شُبّهت بقاعة الامتحان الدنيوية الكبيرة، ذلك لأن الإرادة المؤمنة هي جزء لا يتجزأ من النجاح في هذا الامتحان، بمعنى أن التراجع والنكوص والانهزام تجاه مصاعب الحياة سينم عن إرادة ضعيفة وهذه بدورها تنم عن إيمان ضعيف وبالتالي فشل في الامتحان نتيجة لقلة الإيمان.

فالسعي نحو السعادة وفقاً للسبل والطرائق المشروعة لا يشكل خللاً في توجهات الإنسان لاسيما أننا نتفق بأن السعادة تنبع من التوافق بين الإنسان ونفسه، وإن هذا لا يتحقق إلاّ من خلال الإيمان العميق والصادق الذي يتأتى من التمسك بالمبادئ السماوية التي قدمتها الأديان على شكل كتب مقدسة للإنسان وخاتمها القرآن الكريم الذي جاء بوصفات دنيوية وأخروية تحفظ للإنسان كرامته وتحقق له سعادته في الدنيا والآخرة فيما لو التزم بها وعمل وفقاً لتعاليمها ومبادئها، إذن نستطيع القول أن الدين لايمنع الإنسان من السعي وبذل الجهد لتحقيق النجاح، وفي هذا المجال يقول سماحة المرجع الشيرازي:

(١) سورة يونس: الآية (١٤).

«لا شك أنّ الرضا بالتقدير الإلهي لا يعني أبداً أن لا نخطو من أجل حلّ المشاكل ورفع النواقص بأن نُحجم عن الاستفادة من الوسائل والأسباب الظاهرية والدعاء والتوسّل وغير ذلك، بل المقصود من الرضا بالتقدير الإلهي هو التسليم إزاء الأمور الخارجة عن إرادتنا. فإذا كنّا كذلك فإن تقلّبات الحياة ومصاعبها لن تثنينا أو تعصرنا ولا نصاب بالإحباط والكآبة، ومن هنا أيضاً نفهم وصف المؤرّخين للإمام الحسين -سلام الله عليه- في يوم عاشوراء أنّه كان يزداد وجهه إشراقاً كلّما سقط شهيد من أسرته وأصحابه»[1].

وهنا يرتبط الأمر بدرجة الوعي وقوة الإيمان التي يتمتع بها الإنسان، ولعل العلاقة هنا ستكون طردية تماماً، فكلما كان إيمان الإنسان قوياً كانت قدرته على تحمل الصعاب والمصائب قوية أيضاً ويصح العكس، كما أن الإيمان ومخافة الله سبحانه وتعالى لا تعني أبداً أن يظل الإنسان معتكفاً في بيته عازفاً عن العمل والإنتاج والتفاعل بل كل هذا مطلوب منه (فالعمل عبادة) لكن الجانب المهم هنا، هو أن يتحلى الإنسان بالنزاهة في العمل وأن يكون الإيمان الحقيقي هو المحرك بل المسيطر على كل أنشطة الإنسان لأنه في هذه الحالة لن يُخطئ ولن يتجاوز على أموال غيره ولن يرتكب الحماقات مع الآخرين وبالتالي سيكون راضياً عن نفسه

(١) قال عبدالله بن عمار بن عبد يغوث في وصفه للإمام الحسين عليه السلام: ما رأيت مكسوراً قط قد قُتل ولده وأهل بيته أربط جأشاً منه. أنظر مثير الأحزان لإبن نما: صفحة (٥٤) المقصد الثاني، في وصف موقف النزال وما يقرب تلك الحال.

وداعماً لإيمانه ومتأكداً من أن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى أعماله الصحيحة الخالية من التجاوزات أياً كان نوعها وبالتالي سيصل إلى السعادة الحقيقية التي منبعها الإيمان والإرادة الإنسانية المستمدة منه.

ولذلك فإن السعادة لن تكمن أبداً في سعة الثروة وكثرة الأموال وقوة الجاه وما شابه، بل تكمن بتوافق الإنسان مع نفسه الصالحة أولاً وأخيراً، وهنا يقول سماحة المرجع الشيرازي في كتابه الثمين هذا: «ليست سعادة الدنيا في أمور زائلة كالثروة أو البيت الواسع وغيرهما بل بامتلاك قلب واسع مطمئنّ، راض عن قسم الله تعالى».

سعادة الإنسان والعوامل المساعدة على تحقيقها

من طموحات الإنسان المشروعة والمتفق عليها، هو سعيه الجاد والحثيث للوصول إلى حياة سعيدة له ولذويه ولرعيته إذا كان مسؤولاً عن مجموعة من الناس، فالسعادة هي مبتغى الجميع والسعي إليها لا يتقاطع مع تعاليم الأديان أو الأعراف أو التقاليد أو غيرها من القوانين الأخرى.

وفي هذا الباب يقول المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الشيرازي في كتابه الموسوم بـ (العلم النافع/ منهل السعادة): «ينشد السعادة كلّ إنسان ويبحث عنها، ويسعى لها كل جدّه واجتهاده، وبعض الناس يعيشون السعادة، وكثير منهم لا يعيشونها. فأين تكمن السعادة؟».

إذن ينبغي أن يكون ثمة بحث مستفيض ودقيق عن مكامن السعادة من لدن الإنسان، ولعل التأكيد المستديم الذي يقول بأن مكمن السعادة هو الإنسان نفسه أو ذاته يتوافق مع ما ذهب إليه المرجع الشيرازي في كتابه هذا حيث يقول في هذا الصدد: «إنّ أصل السعادة ومنبعها هو الرضا بما قسم الله جلّ وتعالى. وليست بالمال أو العلم أو الشباب أو صحّة البدن أو في الوظيفة أو في الشخصية أو في العشيرة أو الأقارب الكثيرين، أو في السمعة الطيبة، بدليل أنّ هنالك العديد ممّن توفرت عندهم هذه الأمور لكن مع ذلك تراهم متعبين نفسياً، أو يقدمون على الانتحار والعياذ بالله.

لذا، فالملاك في السعادة أن يجد الإنسان نفسه قانعاً بمقدار ما يوجد في أعماق نفسه من رضا بما قسم الله سبحانه له، سواء كان شاباً أو كبير السن، فتاة أو عجوزاً، متزوجاً أو أعزب، رجلاً أو امرأة، غنياً أو فقيراً، جامعياً أو حوزوياً، وفي أيّ مجال كان. فإذا رضي مئة بالمئة، فهذا سعيد مئة بالمئة، وهكذا».

إذن تكمن السعادة في الرضا عن النفس، بمعنى أن الإنسان كلما كان متوافقاً مع نفسه كلما كان قريباً من كنز القناعة التي تقوده إلى حالة التوافق مع الذات، وتبعده عن الندب أو اللهاث وراء غنائم الحياة الفانية، فحين نقول بأن من حق الإنسان الحصول والوصول إلى السعادة ومنبعها، فهذا لا يعني قط أن يحقق الإنسان مآربه بالطرق أو الوسائل غير المشروعة، حيث سيتعارض ذلك مع مبدأ التوافق النفسي أو الرضا عن الذات، ناهيك عن تقاطعه مع التعاليم

الدينية والأخلاق والأعراف وما شابه ذلك، نعم أنت لك كل الحق أن تكون سعيداً في حياتك ومن هم تحت رعايتك لكن ينبغي أن تصل إلى هذا الهدف بما يقبل به الله تعالى.

إن إيمان الإنسان بما أتى به القرآن الكريم في هذا الصدد سيغنيه عن الكثير من المصاعب والمتاعب في آن، وسوف يقوده إلى السعادة بأقصر الطرق، وفي هذا الصدد يقول سماحة المرجع الديني الشيرازي في كتابه المذكور نفسه: «إنّ الآيات المباركة في القرآن والأحاديث الشريفة عن المعصومين الأربعة عشر -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- قد أكّدت هذا الأمر كثيراً. ففي محكم التنزيل قال الله تعالى: ﴿**لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾، وفي دعاء الإمام زين العابدين -سلام الله عليه- الذي نقرأه في أسحار كلّ يوم من شهر رمضان المبارك والمعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي -الذي لو قرأه المرء مرّة واحدة بتأمّل وتفهّم دقيقين، فإنّه سيرجى عند الانتهاء منه أن يكون مستجاب الدعوة من الله إن -شاء الله تعالى- نقرأ في آخر سطر منه العبارة التالية: «ورضّني من العيش بما قسمت لي».

إنّ امرأة فرعون كانت تعيش مع أسوأ الرجال، حيث كان طاغوتاً وجبّاراً وظالماً، فرضيت بما قسم الله لها، حين قالت كما أخبر عنها قوله تعالى: ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ**﴾ فكانت امرأة سعيدة، وصارت نموذجاً للإقتداء والتأسّي. فالله تعالى في كتابه العزيز يدعو النساء والرجال إلى

التعلّم منها، وهذا هو أساس السعادة.

إنّ الرضا بما قسم الله ليس معناه أن لا يسعى الإنسان في رفع مشاكله أو سدّ نواقص حياته أو دفع معاناته، بل عليه مع ذلك أن يكون قانعاً بما قسمه الله عزّ وجلّ له، حتى يهنأ في معيشته وحياته. إنّ الذي يرضى بما قسم الله له لا يتعرّض للأمراض، سواء البدنية منها أو النفسية ولا يقتل نفسه أبداً، وهذا أمر بالغ الأهمية وله آثار إيجابية كبيرة. فينبغي لكلّ مؤمن أن يعزم عليه ويعمل به دوماً، حتى يهنأ ويسعد في عيشه».

وهكذا نستطيع أن نقول بأن الإنسان هو من يمسك بزمام الأمور فيما يتعلق في استحصال السعادة والوصول إلى منابعها وروافدها في آن، ولعل الأمر مقرون بالإرادة الإنسانية الصالحة التي تدفع بالإنسان إلى البحث عن عناصر ومقومات سعادته ولكنها في الوقت نفسه تضع له الحدود والاشتراطات التي تمنعه من الشطط والميول إلى ما لا يرضي الله سبحانه وتعالى لأن ذلك سيقود (بما لا يقبل الشك) إلى تضارب وتضاد نفسي يدمر التوافق المطلوب توافره في ذات الإنسان لكي يتجنب السقوط في مهاوي الرغائب والغرائز التي غالباً ما تدفع الإنسان إلى حافة اللامشروع.

لا لتقمص الفضائل

في كتاب (العلم النافع سبيل النجاة) لسماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي -دام ظله- طرح لأفكار المرجعية من منطلق العمل بالقرآن الكريم والأحاديث الشريفة الداعية إلى الاستفادة من مجالس العلماء لتغذية الروح الإنسانية، القلب، بالفضائل لنيل الدرجات الحسنى في الدنيا والآخرة، والابتعاد عن معصية الله سبحانه، أسال الله تعالى أن يمن علينا بتسهيل الطريق لنتحلى بالفضائل ونتجنب الرذائل.

يستهل السيد المرجع حديثه العلمي الشيق بالقول: إن التخلي عن الرذائل طريق إلى التحلي بالفضائل، والتحلي بالفضائل طريق إلى الإمدادات والفيوضات الإلهية.

قد يحمل الإنسان نفسه قسراً على تقمص الفضائل، لكنه في الوقت نفسه تجده قد احتوته الرذائل، حتى لا تجد تلكم الفضائل لها مكاناً في القلب إلا لوقت محدود وسرعان ما تزول. يقول علماء الأخلاق: إن على الإنسان أن يصلح نفسه أولاً باقتلاع جذور السيئات والرذائل المتعلقة بقلبه لتحل بعد ذلك محلها الحسنات والصالحات.

هناك العديد من الأحاديث التي تشير إلى هذا المعنى إجمالاً، منها ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لولا أن الشياطين يحومون حول قلب ابن آدم، لنظر إلى الملكوت». فالإنسان لا يرى الملائكة -مثلاً- ولا يسمع أصواتها، كما لا يرى كل آثار رضى الله وغضبه، شأنه في ذلك شأن عجزه عن الإحساس بحدوث مقدمات الزلزلة قبل وقوعها، في حين إن الله تعالى قد زود بعض الحيوانات قابلية الإحساس بقرب وقوع الزلزلة، بحيث تراها تصرخ قبل وقوعها. تسعى لمغادرة المكان، لعلها تهجره قبل يوم أو يومين من حدوث الزلزال، فهي إذاً تدرك أمراً يعجز الإنسان رغم فكره وعقله عن توقعه أو تحسسه.

فمن كانت الشياطين تحوم حول قلبه لتغمره بالأمراض الروحية والمساوئ النفسية، كما يشير السيد صادق الشيرازي، يعجز عن النظر إلى ملكوت السماوات والأرض، وعن معرفة الحكمة، ولا يعي أهمية العقل والفضيلة، بالتالي ينجر إلى حيث تسوقه شياطينه المحيطة بقلبه.

القلب.

مكان الشرور التي يجب محاربتها بقوة الله سبحانه هو القلب. وحسب رأي السيد المرجع الشيرازي -دام ظله- أن لكل شيء في الحياة آثار يدركها الإنسان إذا توفر شرط الإيمان وشرط العلم، فالنظر إلى ملكوت السماوات والأرض، ليس بحاجة إلى معجزة ليتحقق، بل أمره متوقف على توفر جملة من العوامل، في مقدمتها إصلاح القلب.

مثل الناظر إلى ملكوت السماوات والأرض مثل المهندس المعماري الذي يحدد عمر هذه البناية أو تلك من أول نظرة إليها، ومثل الطبيب الحاذق الذي يستطيع تشخيص المرض بمجرد أن يلقي نظرة على المريض، لما يراه من آثار في وجهه وغير ذلك، مثل الخبير في علم اللغة والخطابة الذي يستطيع معرفة الخطيب المفوه من أول جملة يتفوه بها هذا الخطيب أو ذلك.

إذاً فما حازه أولئك من علوم وفنون حتى صاروا يعرفون ضمن إطار تخصصهم، إنما حصل بفعل إعمالهم العقل والعناية، فهكذا الحال لمن يريد الوصول إلى معرفة الملكوت يجب عليه إعمال القلب وتهيئته للتوسم بآيات الله سبحانه وتعالى: (إن في ذلك لآيات للمتوسمين).[1]

من هذا الحديث الشريف وأمثاله قال علماء النفس والأخلاق

(١) سورة الحجرات: الآية (٧٥).

أن على الإنسان لكي ينظر إلى الملكوت أن يصلح قلبه أولاً، وذلك عبر انتزاع الرذائل منه، ثم بعد ذلك يحاول زرع الفضائل مكانها. هذا يلزم قلع جذور السوء من قلبه أولاً، فإن استطاع، فبمقدار ما استطاع وبنفس النسبة يكون تسديد الله سبحانه، إليه وشمول رحمته له.

امتلاك الحواس.

روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «إن من أحب عباد الله إليه، عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن، وتجلبب الخوف، فزهر مصباح الهدى في قلبه». مما ينبغي الإشارة إليه أن الحواس الظاهرة أسهل في الامتلاك من القلب. فلعل من السهل على الفرد أن يحاول امتلاك لسانه إذا تعرض للسب والإهانة، أو أن يسيطر على يده إذا تعرض للضرب، فيشبك أصابعه لئلا ينفلت منه زمامها ولكن من الصعب أن يملك المرء قلبه. فالجبان مثلاً حتى إذا خاض بجسمه في الأمر المهول، إلا أنه يعجز عن امتلاك قلبه وأن يتحكم بدقات القلب فيحول دون اشتدادها.

فامتلاك الجوارح أسهل على الإنسان بكثير من امتلاكه قلبه وباطنه، لا سيما في اللحظات الحرجة والحساسة، كلحظات الغضب والطمع والحسد. هذه حالة موجودة في القلب ولكن إذا غذاها الإنسان اشتدت وزادت، أما إذا أنبها وحاول إزالتها تقل الحالة وتضعف.

وما ورد في هذه الرواية من قوله عليه السلام: «فاستشعر الحزن»

يفيد أن الحزن لا يكون إلا من النفس، فيصيب قلب الإنسان فتور في الانقباض والانبساط فتظهر آثاره على البدن والوجه، المراد هنا الحزن على ما فرط وارتكب من الذنوب وعلى ما قد ينتظره من مستقبل غير معلوم من هذه الجهات. لذا فإن من أعانه الله على نفسه لابد أن يكون كثير التأكيد والتركيز على نقاط الضعف الكثيرة والمتأصلة في قلبه والتي عادةً ما يكون استسلام الإنسان لشهواته مسبباً عنها.

وسائل التطهير.

للتطهير والإصلاح وسائل، يحاول المرجع الديني السيد الشيرازي تسهيل أمر تقديمها للمستمع والقارئ، هذه الوسائل سلسلة متصلة الحلقات لا تنفك، منها:

أولاً: الإخلاص لله سبحانه وتعالى، والذي يتأتى بالإرادة والممارسة. ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من أخلص لله أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

فالقلب كالمرآة كما أن الإنسان لا يستطيع أن يرى نفسه جيداً في المرآة التي تراكم الغبار عليها، كذلك إذا علا قلبه الرذائل، لا يستطيع أن ينظر إلى ملكوت الله، قال عز وجل: ﴿**الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[1]. فلمَّ توجل قلوب هؤلاء عند ذكر الله تعالى؟

(١) سورة الأنفال: الآية (٢).

الجـواب: لأن قلوبهـم عامرة في الأسـاس، فعندما يسـمعون اسـم الله تعالى، يسـتذكرون أشواط حياتهم ويسـتعيدونها ويتوقفون عند مسـاوئهم ويسـتغفرون الله من المعاصي، والإخلاص مهمة صعبة إلا أنها ممكنة.

ثانياً: ويتلو الإخلاص لله تعالى، مهمة الاستمرار في محاسبة النفس.

ثالثـاً: كمـا يعتبـر التوكل علـى الله سـبحانه وتعالـى وطلب المعونـة منـه من وسـائل الإمـدادات الإلهية فـي تطهيـر القلب من الرذائل، وتعويضها بالفضائل.

أهمية الموازنة بين الواجبات والمحرمات

هنـاك واجبات ينبغي على الإنسـان المسـلم معرفتها وتأديتها عن طيب خاطر، وهناك محرمات ينبغي عليه أن يعتاد الامتناع عنها، من خلال قدرته على التحكم برغائب النفس أولاً، ومن خلال القدرة علـى الموازنة بين تأديـة الواجبات والامتناع عن إيتـاء المحرمات، ومنها على سبيل المثال، عدم الاعتداء على الآخر، حتى لو توافرت للإنسان مقومات القوة الجسدية أو المعنوية كقوة السلطة.

فـإذا كان الإنسـان قويـاً لا يعنـي ذلك منحـه امتيـازاً للتجاوز علـى الآخريـن، وإذا كان حاكمـاً لا يعني ذلك شـروعه بظلم الناس من خلال سـلطته، ولنا أمثلة مشـرقة في تأريخنا الإسلامي على دقة الموازنة بين مراعاة حقوق الناس واحترامهم، وبين القيام بما يقتضيه

الواجب الديني أو الأخلاقي أو العرفي وما شابه.

في إحدى محاضرات المرجع الديني آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي -دام ظله- وهي بعنوان: (لنعرف إمامنا وواجبنا بصورة أفضل) جاء بهذا الصدد: «لقد كان أمير المؤمنين -سلام الله عليه- يدفع مَن ناهضه وبارزه بالنصح والموعظة ما أمكن، وكان يسعى للحؤول دون وقوع الحرب وإراقة الدماء، سواء عن طريق المواعظ الفردية والجماعية أو غيرها، ولكن إذا وصل الأمر بالطرف الآخر أن يهجم ويريد القتال قام الإمام عليه السلام بدور الدفاع لا أكثر، ولكن ما إن يتراجع الخصم أو ينهزم حتّى يتوقّف الإمام عن ملاحقته ولا يسعى للانتقام منه، ولم يروَ أن الإمام بدأ أحداً بقتال أبداً. وهذا الأمر مشهود في تاريخ أمير المؤمنين سلام الله عليه».

لذلك ينبغي أن يكون الدافع لأية وظيفة أو عمل ما، مبرراً ومقبولاً، ولا ينبغي للإنسان أن يحتكم إلى نفسه وأهوائها، في إيتاء هذا العمل أو تجنبه، بل ثمة ضوابط معروفة ينبغي الاحتكام لها، تجنباً لرغبات النفس وسلطتها وميولها المعروفة نحو تفضيل الذات، نعم ينبغي أن يعرف الإنسان حقوق النفس وحقوق الآخرين أيضاً. يقول سماحة المرجع الشيرازي بهذا الصدد في محاضرته القيّمة نفسها: «على كلّ فرد منّا أن ينظر ما هي وظيفته تجاه نفسه وتجاه الآخرين، وما هي الواجبات المترتّبة عليه، وما هي المحرّمات التي يجب عليه الانتهاء عنها».

ولا تنحصر معرفة الواجبات والمحرمات في جانب دون غيره، بل ينبغي أن تكون هذه المعرفة شاملة، أي تشمل كل مناحي الحياة، ومنها الحياة الزوجية للفرد مثلاً، إذ يؤكد سماحة المرجع الشيرازي قائلاً: «على كلّ فرد منّا أن يعرف ما هي الواجبات بحقّه وما هي المحرّمات عليه. فعلى الزوج أن يعرف واجباته تجاه نفسه وتجاه عائلته وتجاه الآخرين، وكذا المرأة عليها أن تسعى لمعرفة ما يجب عليها تجاه زوجها وأولادها والمجتمع. وهكذا الأولاد تجاه والديهم والوالدين تجاه الأبناء، وكذا الإخوة فيما بينهم، وهكذا الجيران والأرحام والمتعاملون بعضهم مع بعض».

ولذلك لابد أن يكون الإنسان عارفاً وملمّاً في حقليّ الواجبات والمحرمات، وهذا يتطلب سعياً حثيثاً لمعرفة ذلك، من خلال المتابعة والاطلاع علمياً ومعرفياً، والاقتراب من مصادر المعلومات الموثوقة في هذا الجانب، بمختلف أنواعها الدينية والتربوية وسواها، إذ يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا المجال: «إنّ الواجب هو أن يعرف الإنسان أحكامه ولا أقلّ من الواجبات والمحرّمات».

ولا ينبغي التوقف عند تحصيل القدرة على معرفة الواجبات والمحرمات، والموازنة بينهما، بل على من يتقن ذلك ويتعلمه، أن يُعلم الآخرين عليه، كما يؤكد ذلك سماحة المرجع الشيرازي قائلاً: «على كلّ فرد منّا سواء كان رجلاً أو امرأة، شاباً أو شيخاً، أن يحصل على ملَكة تحصّنه من ارتكاب المحرّمات أو التخلّف عن

الواجبات، ثمّ عليه بتعليم الآخرين حسب مقدرته ومعرفته».

لـذا في كل الأحوال، ينبغي أن يسـعى الإنسـان لمعرفة ما هو مطلوب منه، سـواء فـي جانب الواجبـات أو المحرمات، وفي حال تمكنـه من إتقـان ذلك جيداً، عليـه أن يبادر لتنويـر الآخرين في هذا المجـال، لذلك يبقى السـعي للمعرفة أمراً مطلوباً من الإنسـان على نحو دائم، إذ يقول سـماحة المرجع الشـيرازي في هذا الخصوص: «أمّا ما لا يعرفه -الواجب والمحرم- فليتعلّمه إن كان يستطيع ذلك، ثـمّ يعلّمه للآخرين، فإنّ نسـبة الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر إلـى العلـم هـي نسـبة الواجب المطلـق، وليـس المشـروط، ولكنّه واجـب كفائـي، فإذا لم يكن مَـن فيه الكفاية صار واجبـاً عينياً أيضاً. أي أنّ على كلّ شخص مكلّف أن يتعلّم الواجبات والمحرّمات التي عليـه وعلى الآخرين للعمل بهـا وتعليمها والأمر بهـا للوصول إلى حدّ تتحقّق فيه الكفاية».

أهمية الكلام وقوة تأثيره في الآخرين

يتفق المختصون بأن خطوة اكتشاف الإنسان للّغة شكَّلتْ قفزة أساسية في رحلة التطور البشري، فبدلا من لغة الإيماءات والإشارات وما شابه، صارت للإنسان حروف وأصوات ومن ثم كلمات ولغة تفاهم تختصر له زمن الفهم وتخلصه من عناء اللغة الإشاراتية البطيئة جداً في حينها.

وأصبحت اللغة هي العنصر الوسيط والرابط بين الناس من حيث التعامل الفكري والحركي، وهي أداة العلماء والمفكرين والمصلحين والفلاسفة والسياسيين مثلما هي أداة لعامة الناس من عمال وطلاب وموظفين وغيرهم، وبهذا فقد تعددت مهام الكلام وتضاعفت أدواره في الحياة الفكرية والعملية حتى أصبح الوسيلة

الأخطر والأكثر تأثيراً في المحيط البشري.

مـن هنا فرّق العلماء والمختصون بين حالتين للغة أو الكلام، فثمـة كلام أو لغة مجردة معدّة سـلفاً للسـماع فقط مـن أجل تحقيق أهـداف محـددة ربما تكون فكرية أو دينيـة أو علمية أو غيرها، وثمة لغـة أخرى ينبغـي أن تُقرَن بالفعل المرادف لهـا، بمعنى أن مثل هذه اللغة سـيكون تأثيرها محدوداً في حال عدم إقرانها بالفعل المشـابه لهـا أو المحقـق لمضمونها، ولذلك جاء في الآيـة القرآنية الكريمة: **﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُـونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾**.

وفي هذا الصدد، جاء في كتاب المرجع الديني آية الله العظمى السـيد صادق الشيرازي الموسوم بـ(العلم النافع): إن «المفهوم من الآيـة الكريمـة أنّ الله تعالى يمقت الذين يقولون مـا لا يفعلون. بيد أنّ ههنا مسألتين لا ينبغي الخلط بينهما: الأولى: أخلاقية، وهي قبح مناقضة القول للعمل. أمّا المسـألة الثانية: فهي مسـألة شرعية، وهي عدم سـقوط وجوب القول بذريعة عدم العمل به. فالأمر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر واجبـان حتّـى على الشـخص الـذي لا يعمل بالمعروف ولا ينتهي عن المنكر».

إذن فالـكلام مهمـا بلغ فحواه مـن العلو والكمـال والصحة، فإن تحقيقه على أرض الواقع سـيكون شـرطاً للقبـول به، بمعنى أن القائد السياسـي الفلاني على سبيل المثال وليس الحصر، قد يطالب شـعبه بضرورة التطور والتقـدم وزيادة الوعي والتنبّـه للمخاطر وما

إلى ذلك، فهل سيلاقي قوله هذا قبولاً في حال كان مشغولاً بتحقيق مصالحه وملذاته الشخصية وما إلى ذلك كما يتحدث لنا التاريخ والواقع عن قادة من هذا النوع، فمثل هذا القائد الذي يتحدث عن العدل والمساواة والمثابرة وتكافؤ الفرص وغيرها، هل سيُقبل منه هذا الوعظ وهو موغل بالظلم والتفرقة وتقريب الأهل والحاشية والبطانة المفسدة وما شابه؟. قطعاً إن الشعب لا يهتم بكلام مثل هذا القائد ولا يتأثر به لأنه يعرف بأن هذا الكلام (مجرد من الفعل) أي أن حصته من التطبيق ملغاة تماماً أو ضئيلة بما لايتناسب وحاجة الناس لتطبيقها.

نعم نحن نتفق على أن الكلام الجميل الحقيقي المخلص له وقع في النفس وله قبول كبير من لدن الناس على مختلف مشاربهم ومستوياتهم في التمحيص والاستيعاب، لكن يبقى الفعل داعماً قوياً له، وحول هذه النقطة يذكر المرجع الشيرازي بكتابه (العلم النافع) أيضاً: «إنّ كثيراً من العبارات الجميلة التي تُنسب لبعض الحكماء أو المفكّرين ترى لها أصلاً في كلمات أئمّة أهل البيت -سلام الله عليهم- فإن لم تكن بالنصّ فبالمعنى، ذلك أنّ أهل البيت ما تركوا شيئاً حسناً وجميلاً إلاّ أمروا به ودعَوا إليه، وما من سيّئة إلاّ ذمّوها ونهوا عنها، ولذلك يجد الباحث كلّ العبارات الصائبة والجميلة للحكماء مقتبسة من كلمات الرّسول وأئمّة الهدى عليهم الصلاة والسلام».

وجاء في كتاب المرجع الشيرازي أيضاً: «إنّ الناس لا

يكونـون كما تقولون، بقـدر ما يكونون كما تكونـون، إنّهم يأخذون من سيرتكم أكثر ممّا يأخذون من أقوالكم». إذن فالكلام هنا واضح جـداً، إذ لا قيمـة للكلمـات ما لن تدعمها سـيرة عمليـة على أرض الواقـع، وهكـذا كانت سـيرة نبينا الأكـرم وآل بيتـه الطاهرين عليهم السلام داعمـاً عظيماً لأقوالهم العظيمة، وسـيتأكد من قرأ التاريخ بتمعن أن العمل والتطبيق كان يسبق إن لم يرافق كلام الأئمة عليهم السلام وأمامنا بل أمام الجميع السـيرة السياسـية العظيمة لأميـر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكيف سـاس الرعية وكيف كان يطبق قوله على نفسـه وذويه قبل أن يشترط تطبيقه من لدن رعيته.

وهذا ما يدل بصورة قاطعة على إن القول يكتسب أهميته وقوة تأثيـره من درجة تطبيقه على أرض الواقع من لدن القائل على نفسـه أولاً ثم على الآخرين.

الحرص والكفاف ضمان لحياة ناجحة

لاشك أن الإنسان كان ولا يزال، يبحث عن الأسلوب الأفضل، لإدامة حياته كفرد وكجماعة أيضاً، فجميع الأمم، سابقاً وحاضراً ولاحقاً، تستنجد بتعاليم الدين والفكر والفلسفة والعلوم كافة، لكي تحصل على تخطيط أفضل، وتصل إلى منهج حياة يتيح للإنسان مواصلة العيش بسعادة، واستقرار وتطور مضطرد، لذلك يبقى العالم والمتعلم والمثقف ذا مسؤولية مضاعفة، وكبيرة إزاء الآخرين الأقل وعياً، من أجل تحسين منهج حياتهم.

الاقتداء بأهل العلم.

لهذا كان أهل العلم ورجال الدين والنخب كافة، محط أنظار

الناس البسطاء، في وعيهم وأفكارهم وحياتهم عموماً، فيتحول رجل الدين أو المثقف إلى نموذج يقتدي به الإنسان البسيط، كي تتطور حياته نحو الأفضل، لذا فمحاسبة النموذج تتفوق على محاسبة الآخرين، كما يؤكد ذلك سماحة المرجع الديني، آية الله العظمى، السيد صادق الحسيني الشيرازي -دام ظله- في إحدى محاضراته القيّمة حول الحرص والكفاف، إذ يقول سماحته في هذا المجال: «إنّ الناس يقتدون بنا -أهل العلم- ويتعلّمون من سيرتنا، فنحن نحاسَب على أعمالنا من جهتين، الجهة الأولى كسائر الناس حيث يحاسَب كلّ إنسان عمّا صدر منه، والجهة الثانية لما يستتبعها من اقتداء الناس بها».

إذن فمنهج الحياة المكوَّن من منظومتيّ الفكر والسلوك، يعتمد على طبيعة التربية والتثقيف ونمط العيش، بالإضافة إلى التأثير الغريزي على قرارات وأفعال الفرد، وغالباً ما يكون الإنسان المرفَّه عرضة للخمول والتراجع والضمور في الإرادة قياساً للفقراء، يقول سماحة المرجع الشيرازي في محاضرته القيّمة نفسها: «إنّ طالب العلم إذا كان موسراً تراه لا يبلغ المراحل العلمية العالية في الغالب، لأنّها ستلهيه عن هدفه الأصلي. ولا نعني أنّه سينصرف عن الإيمان، ولكن الأموال ستشغله وتأخذ من وقته وفكره، فيتأخّر عن الدراسة وارتقاء الدرجات، ولهذا نرى معظم مراجع الدين ينحدرون من عوائل فقيرة، بل غالباً ما لا يصبح ابن الغني عظيماً، فإذا كان طالب علم في الحوزة لا يصبح مرجعاً، وإذا كان يدرس في الجامعات لا يصبح أستاذاً أو عميداً مثلاً».

حماية منهج الكفاف للإنسان.

وهكذا يتوضح لنا منهج الكفاف، بأنه العيش بعيداً عن إغواءات الحياة الكثيرة، لاسيما في طرق الانحراف والأهواء التي تبحث عنها النفس الأمارة بالسوء، لذلك لابد من التزام منهج الكفاف وترويض النفس، لأن الكفاف هو منهج الاعتدال والنجاح الدائم، إذ نقرأ بهذا الخصوص قول سماحة المرجع الشيرازي: «إنّ أكبر عقل خلقه الله عزّ وجلّ هو عقل رسول الله ﷺ وأعظم حكمة أودعها الله تعالى في بشر هي الحكمة التي أودعها رسول الله ﷺ وهذا منطق رسول الله، فإنّ الذي عنده الكفاف هو في مأمن، أما صاحب الزيادة فمعرّض للأخطار».

حرص الإنسان على الدنيا.

إن غريزة الإنسان تدفعه للتعلق بالدنيا، والاستجابة لإغواءاتها من حيث الجاه والمكانة والمال والسلطة والنفوذ وما إلى ذلك، ولا يتوقف الأمر عند حد معين، فالإنسان غالباً ما يريد الحصول على الأفضل والأكثر والأجمل والأهم وهكذا، إنها سلسلة من المطالب لا تقف عند حد معين، وكلما ازدادت أموال الإنسان ازداد لهاثه وراء المال وما يتبع ذلك من أمور كثيرة، لذا يقول سماحة المرجع الشيرازي في هذا الجانب بمحاضرته المذكورة: «كلّما ازداد المرء أموالاً زادت التزاماته ومسؤولياته وازداد تحديداً وتقييداً، كالشخص المجرّد يبيت ببيت قرب محل درسه لأنّه غير مقيّد بعائلة

يجب عليه المبيت عندهم، ولا نعني من قولنا هذا أن لا يكون عند الإنسان شيء، ولكن نريد أن لا يكون عنده حرص، لأنّ الإنسان بطبعه حريص على الدنيا، وأن الترفّع عنها واكتساب الفضائل يتطلّب تربية وترويضاً للنفس، وإلاّ فهي بطبعها ميّالة للتكاثر، فمَن لا يملك بيتاً يتمنّى أن يكون عنده بيت، وصاحب البيت الصغير يتمنّى بيتاً أكبر وأجمل، خاصة عندما يزور صديقه مثلاً ويرى أنّ بيته أفضل. وهكذا الحال مع باقي النعم وما متّع الله به العباد، كالجاه والملكات والقوى والاستعدادات، ولهذا دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالكفاف لذلك الرجل الذي سقاه وأطعمه».

ولكن لا يعني الكفاف التخلي عن متطلبات العيش المهمة، التي تحفظ بدورها كرامة الإنسان وحقه في العيش الكريم، فالإسلام الذي أوصى بالكفاف، لم يطلب من الإنسان أن يعيش على هامش الحياة، بل العيش باعتدال، كما نقرأ ذلك في قول سماحة المرجع الشيرازي: «الكفاف هو المقدار الذي يكفي الإنسان، فهو يحتاج إلى عدّة أمور منها: المقدار الضروري الذي يحتاجه لمعيشته. ما يحتاجه لحفظ كرامته. فمثلاً لا يليق بالرجل أن يخرج إلى الشارع بسروال قصير فقط وإن كان يمكنه أن يعيش به وحده، لكنّه يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك لحفظ كرامته الاجتماعية لأنّه لو خرج بسروال قصير فقط لتعرّض للسخرية والحطّ من شأنه وشخصيته».

الاكتفاء الذاتي للمسلمين.

ومع ذلك الحرص والكفاف لا يمنع المسلمين من العمل

بالتجارة، أو قلة العمل بتداول الأموال وما شابه كونها قد تشكل دافعاً للانحراف، بل دعا الإسلام أن يواصل المسلمون العمل الربحي من أجل رفعة الإسلام والمسلمون، كما نلاحظ ذلك في قول سماحة المرجع الشيرازي: ينبغي مواصلة «العمل من أجل حصول الاكتفاء الذاتي للمسلمين وعدم خضوعهم اقتصادياً للكفّار، ومثاله: التاجر يريد أن يترك عمله لأنّه قد حصل على ما يكفيه من المال، ولكنّ الإسلام يأمر أتباعه بالتجارة لئلاَّ تنتقل أَزِمَّة اقتصاد البلاد والعباد إلى الكفّار، وهكذا تكون مواصلة العمل بالتجارة جزءاً من الكفاف المطلوب اجتماعياً وإن كان التاجر المسلم قد وصل إلى مرحلة الكفاف الشخصي». لذلك يمكن للإنسان أن يتقشف ذاتيا، أي مع نفسه، ولكن لا يصح هذا مع عائلته واحتياجاتها المهمة، إذ يقول سماحة المرجع بهذا الخصوص: «سبق أن قلنا إنّ الإنسان ينبغي أن يتقشف على نفسه، ولكنّه يستحبّ له أن يبذل على عائلته وضيوفه، وقلنا أيضاً إنّ على الإنسان المسلم أن يقنع بما يسدّ حاجته ولا يمدّ عينيه إلى المزيد إلاّ فيما أمر الإسلام وضربنا بعمل التاجر مثلاً، وهذه الأمور وأمثالها تكشف عن أنّ هدف الإسلام هو تربية الإنسان لكي يسمو ويتكامل ويرقى روحياً».

كما أن الحرص والكفاف لا يعني عدم المساعدة وغياب التكافل، لأن الإنسان بطبعه يتبرع بأقل الأشياء نوعاً وكماً وفقاً لرؤية خاطئة، لأن هدف الإنفاق هو مساعدة المحتاج على أفضل وجه، كما نقرأ ذلك في قول سماحة المرجع الشيرازي في محاضرته هذه: «الملاحظ أنّ أغلب الناس يأكل الأفضل ويلبس الأجود ويسكن

الأرفـه، ولكنّه عندما يريد أن يعطي وينفق فإنه يُخرِج الأدنى والأقلّ ومـا لا حاجة لنفسـه فيه. فـإذا أراد أن يعطي فاكهـة لفقير مثلاً أعطاه الفاكهة الرديئة، وإذا سُئل عن سبب ذلك قال: لأنّ الفقير متعوّد على أكلهـا. وإذا أراد أن يعطيه مالاً أعطاه قليلاً جداً مدّعياً أنّ ذلك يكفيه وأنّه لا يأمل أكثر من ذلك، غافلاً عن أنّ للإنفاق هدفين، الأوّل سـدّ حاجـة المنفَق عليـه، والثاني -وهو الأهم- تحقيـق الكمال للمنفِق نفسه».

المحتويات

كلمة الناشر ٥
مقدمة مؤسسة النبأ للثقافة والإعلام ٧
خارطة طريق للتطوير الذاتي ١٣
التغيير الذاتي ومعايير النجاح ١٥
تربية الذات وكبح جموحها. ١٦
انتهاج الطرائق الإنسانية للنجاح ١٧
ما يملكه الإنسان أمانة في عنقه. ١٨
ما هو السرّ في تحقيق الشخصية الناجحة؟ ٢١
تطور الإنسان سنّة من سُنن الحياة ٢٥
مراجعة الذات وتهذيب النفس من العيوب ٢٩

فرص الإصلاح بجهود استثنائية أصحاب الحِجْرْ نموذجاً ٣٣
من هم أصحاب الحِجْرْ؟. ٣٣
الإصرار على الإصلاح. ٣٥
صعوبة إقناع المعاندين. ٣٦
إصلاح الذات خطوة أولى في القضاء على منظومة الفساد ٣٩
النقد الذاتي أساس التعلم ٤٥
رمزية الأخلاق والدور الرائد لبناء المجتمع ٥١
السلطة بين العلم والأخلاق. ٥٢
الحاجة إلى الرمز الأخلاقي. ٥٣
التزام الفضائل والعناية بها. ٥٣
مقارعة الذات. ٥٤
هل تصبح الأخلاق مَلَكَة؟ ٥٥
الأخلاق الجوهرية تعني صناعة الإنسان ٥٧
العلم والأخلاق ركيزتان أساسيتان لتطور الإنسان ٦١
طريق طلب العلم وتجاوز المعوقات ٦٥
أهمية العلاج الديني في حياتنا المعاصرة ٧١
سعادة الإنسان والتوافق مع الذات ٧٧
سعادة الإنسان والعوامل المساعدة على تحقيقها ٨٣
لا لتقمص الفضائل ٨٧
القلب. ٨٩
امتلاك الحواس ٩٠
وسائل التطهير ٩١

أهمية الموازنة بين الواجبات والمحرمات ٩٣
أهمية الكلام وقوة تأثيره في الآخرين ٩٧
الحرص والكفاف ضمان لحياة ناجحة ١٠١
الاقتداء بأهل العلم. ١٠١
حماية منهج الكفاف للإنسان. ١٠٣
حرص الإنسان على الدنيا. ١٠٣
الاكتفاء الذاتي للمسلمين..... ١٠٤
المحتويات ١٠٧